راشـــــــــيل

رواية

عـــزة مـصـطـــفـى

الطبـعـة الأولـــــــى

2021م- 1442هـ

ديـــــــــوان العـــــرب

للنشر و التـوزيـــــع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

عنـــوان الكتاب: راشيل

اســـم المـؤلف: عزة مصطفى

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــداع: 4210 / 2021

الترقيـم الدولي: 9 - 008 - 998 - 977 – 978

تـصـميـم الغلاف: م. رقية إبراهيم

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحتـه عبـر شبكة الإنترنـت، إلا بـإذن كتـابي مسبق من المؤلـف أو الناشر.

راشـــيل

روايـة

عـــــزة مصطفى

2021

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

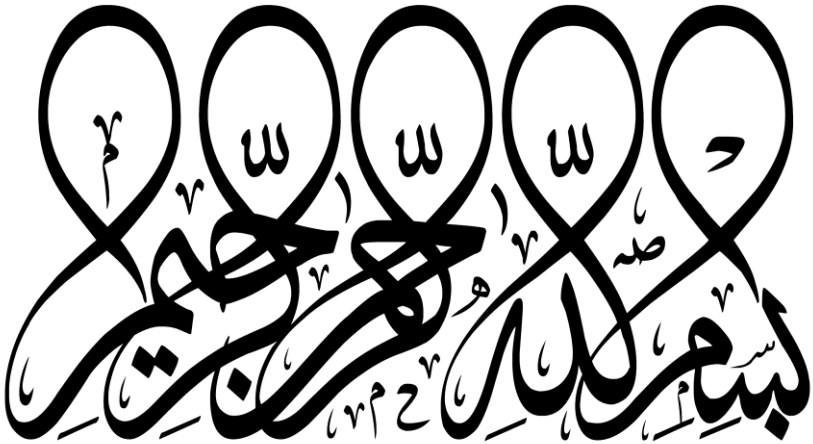
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل الذين ألقوا حجراً في الماء الراكد
لعلَّ القادم أفضل

عزة مصطفى

****

كنت أظن أن شيئاً قد حدث، أو يجب أن يحدث، بعد أن جاء الشبح الذي لم يره أحد -هكذا قال من نجا -وترك على وجه العناصر المتخالطة بقعة هائلة من الدم أخذت تتسع شيئاً فشيئاً، حتى أنّها لم تترك يداً إلا وعلى أصابعها شارة اتهام.

محمد عفيفي مطر

-1-

في غرفة المستشفى الباهتة كان يفحصها الطبيب بدقة وهي ترقد في سُبات رغم أنّ النبض منتظم.. الرئة تعمل بكفاءة.. أجهزة الجسم تمارس دورها الطبيعي.. الضغط والسكر في المستوى العادي.. كل اختبارات الدم لا يوجد بها شيء غير عاديّ؛ في النهاية لا يوجد أي سبب للغيبوبة.

عندما سأله الطبيب: هل تعرضت لانفعال شديد قبل النوم؟

نظر إليها نظرة طويلة وهو يحاول جمع شتات أفكاره ويلملمها من بقايا ذاكرة متهالكة أنهكها السهر والحبوب المخدرة:

"كان يمدد جسده على السرير في حجرة النوم وهي تجلس عن يمينه يكاد لا يشعر بوجودها؛ غارق مع هاتفه يكتب تعليقات وردود كثيرة على منشورات الفيس بوك وهي بجواره لا تجد ما تفعله سوى أن تقلده فتمسك بالهاتف تبحث في صفحتها الشخصية عن شيء تقرأه فلا تجد جديداً فمنشوراتها قليلة والأصدقاء لا يتعدون أصابع اليد من الإناث بالطبع؛ فقد كتبت في تعريف صفحتها "لا أقبل صداقة الرجال" هي قررت أن تكون حياتها صفحة مغلقة على نفسها؛ دائرة علاقاتها لا تتجاوز الأقارب

والصديقات فقط؛ لم يمل عليها أحد رغباته أو يبدي غيرته لتفعل ذلك، هي اختارت وقررت ونفذت فارتدت الحجاب الطويل في سن مبكرة.. حفظت الكثير من الأحاديث وسور القرآن الكريم.. داومت على الذهاب إلى المسجد الكبير في شهر رمضان وأوقات الصلاة.. تتجنب في طريقها النظر في وجوه الناس.. تتجاهل عبارات الغزل التي يطلقها بعض الحمقى.. تسرع في خطواتها كي لا تمنح فرصة لجسدها البض أن يهتز أو تظهر تفاصيله من تحت الجلباب الطويل؛ هي فقط ملتزمة لأنها أرادت أن تكون كذلك.

فتحت هاتفها وأخذت تقلب فيه وفجأة ظهر أمامها منشور لزوجها المتمدد بجوارها بكامل عافيته لا يشتكي من أي مرض" اللّٰهُمَّ شفاءً لا يغادر سقماً.. أسألكم الدعاء" وانهالت عليه التعليقات.. قرأت أول تعليق باسم مستعار من زهرة الحياة "يارب احفظ لنا أحبتنا واشفِ مرضانا وآنس وحشتنا " لم تستطِع قراءة باقي التعليقات توقفت عند زهرة الحياة هذه دخلت على صفحتها الشخصية، لم تعثر على أي معلومات غير أنها من مدينة القاهرة تعمل أعمال حرة متزوجة، تصفحت منشوراتها وجدت على يومياتها العديد من التهنئات بعيد ميلادها منها تهنئة مميزة من خالد الورداني زوجها المستلقي بجوارها هائم في عالم آخر "كل عام وأنت أرق وأجمل زهرة" ارتفع

مستوى الأدرينالين في الدم وتعرق جسدها وازدادت ضربات القلب وشعرت بالألم يفجر رأسها فصاحت فجأة "من هذه زهرة الحياة؟" كأن سؤالها صادم أو كأنه لم يتوقع أن تراقب منشوراته فرد بفتور:

- لا أعرف مجرد صديقة فيس.

قالت وهي تلهج كأنها تحاول ضبط أنفاسها مع إيقاع الكلمات:

-كل التعليقات بينكما تفضح معرفتكما ببعض.

فصاح بعلو صوته بقصد أن يسمع الجيران ما يدور بينهما أو ليحرجها أمامهم:

-هل تراقبين منشوراتي أيتها الشيخة الحافظة لكتاب الله ألم يقل الله في كتابه العزيز "ولا تجسسوا".

لأول مرة لا يحرجها صوته وترد عليه بنفس لهجته:

-التجسس يكون في الأمور الخاصة المخبأة التي لا يراها الآخرون أما هذا الفيس فهو يشبه الشارع العام يراه كل الناس ويمر عليه الجميع كيف تصفه بالتجسس؟

ثم وجهت إليه سؤالها برجاء بعد أن نفد صبرها: أخبرني من هي زهرة الحياة؟

نظر إليها بسخرية وقال: حسناً سأخبرك حالاً.

أمسك الهاتف بعصبية وبحث عن صفحة زوجته التي تنتظر رده كقشة تنقذ بها علاقتهما المتهاوية، ثم ضغط على زر الحظر وفجأة وجدت صفحته الشخصية اختفت من أمامها وهو يصرخ:

-بلوك هل ارتحتِ الآن لا شأن لك بي بعد اليوم.

حينها انحدرت دمعة على وجنتها الحمراء من شدة الغضب وقالت جملتها الأخيرة بحشرجة تشبه حشرجة الموت:

-هل نسيت من أنا ومن أنت؟

هبَّ واقفاً أمامها بينما لا زالت تحتفظ بجلستها على الفراش وحدجها بنظرة عداء وهو يقول بتشفٍ أو بغلٍ دفين:

-لا لم أنسَ أنت راشيل ابنة خالتي التي تزوجتها منذ أربع سنوات لأنها الفتاة المصونة التي يمتدح كل الناس محاسن أخلاقها وجمال جسدها وفوق كل ذلك تدينها وأنا خالد المحاسب الفاسق من وجهة نظرك وقد أقنعتك أمك وأمي بالزواج مني كي تصلحي من شأني وتقوّمي أخلاقي وتأخذيني معك إلى الجنة، لكني سأخبرك الآن أنك لست المرأة التي أريدها ولا التي كنت أحلم بها أنت بكل هذه المواصفات التي تقترب من حد الكمال لا

تصلحين لي ولا أشعر أنك امرأة من الأساس فأنت لا تحملين روح الأنوثة أنت فقط تتقلدين أدوار الملائكة.

كان مستمراً في الصياح كأنه بركان وانفجر على غفلة من شدة غليانه ولم يوقفه سوى صوت سقوط الهاتف على الأرض وتحطم شاشته انتقلت عيناه من الأرض إلى الفراش فوجد يدها مدلاة في الفراغ ورأسها يرتمي على الوسادة، ظل ينظر إليها للحظات قبل أن يستوعب شحوب وجهها واتساع عينيها بنظرة من نظرات الفزع، لوهلة ظن أنها فارقت الحياة لكن عندما حاول الاقتراب منها ليتأكد طلبت منه بهدوء أن يتركها وحدها كي تنام.

يعرف أن النوم هو طريقتها الوحيدة للتخلص من الغضب، نظر إليها بغيظ ثم تركها وغادر صافعاً باب الشقة خلفه بعنف ليقضي سهرته مع أصدقائه العزُاب؛ سهرات لا تعرف عنها شيئاً سوى أنهم يضيفون إلى سجلات أعمالهم رصيداً من الذنوب، وعندما عاد مسطولاً بعد الفجر ألقى بجسده على الأريكة في الصالة، هكذا يفعل كل يوم كي لا يحتك بها وتسأله عن سبب تأخره إلى هذا الوقت وينتهي الأمر بالشجار ككل ليلة، وحين

استيقظ في الصباح مشى على أطراف أصابعه كي يبدل ملابسه ويذهب إلى العمل؛ عمله كمحاسب في إحدى شركات القطاع الخاص يستهلك وقت النهار ولا ينتهي إلا بزوال الشمس، وبعد انصرافه من الشركة لم يفكر حتى في الاتصال بها ليطمئن عليها أو ليعتذر لها أو ليسألها إن كانت في حاجة إلى شيء؛ سيطر عليه العند والغرور وقرر ألا يعود إلى البيت وغيّر اتجاه السيارة إلى المقهي لقضاء بعض الوقت مع الأصدقاء.

كعادته جلس يثرثر وهو يتناول شطيرة من البرجر مع كوب من الصودا، وعندما فتح الهاتف ليتصفح الرسائل الواردة استأذن فجأة من أصدقائه متحججاً بمسؤولياته الزوجية؛ كانت رسالة نارية من صاحبة أكونت زهرة الحياة تخبره بموعد اللقاء القادم فقد سافر زوجها في مهمة عمل ولن يعود إلا بعد يومين وستكون فرصة مناسبة لينهلا من نهر العشق الذي حدث بغتة من خلال منشورات الفيس بوك.

قضى ليلته معها وانصرف قبل شروق الشمس خشية أن تلاحقها الشكوك إذا لمحه أي أحد من الجيران وهو يتسلل خارجاً خاصة أنهم يعلمون طبيعة عمل زوجها وغيابه عن البيت لفترات طويلة، عندما عاد إلى شقته كان قد نسي ما حدث.. نسي راشيل والشجار والبلوك.. فتح باب حجرة النوم

فوجدها نائمة اندس جوارها في هدوء خشية أن يوقظها، وبعد دقائق من التقلب في الفراش اقتحمت أنفه رائحة نفاذة تنبعث من جسدها، التفت إليها بكامل جسده ووضع يده على وجهها فوجد العرق اللازج يغطي الجلد بتلك الرائحة المميزة لسن الشباب هبطت يده إلى ملابسها فوجدها رطبة من أثر التعرق فتذكر إنها نفس الملابس التي كانت ترتديها منذ يومين هزها بعنف لكنها لم تستيقظ جلس متكدراً بعد أن تذكر كل ما حدث أخذ يقلبها يميناً ويساراً لم تظهر عليها أي استجابة أو رد فعل فانتابته حالة من حالات الذعر لا يدري هل نامت كل هذا الوقت أم دخلت في غيبوبة الموت!.

غرزت الممرضة إبرة في يدها تتصل بأنبوب طويل لتتدفق المحاليل في العروق وتمد الجسد بما يبقيه على قيد الحياة، نظر الطبيب إلى خالد الواقف في ذهول وكرر نفس السؤال بإصرار:

-هل تعرضت لانفعال شديد قبل النوم؟

انتقلت عين خالد من راشيل إلى أمه الواقفة بجواره والتي كانت تحدجه بنظرات شرسة ومتوعدة لما يحدث لابنة أختها ووصية توءمها فتهدج صوته وهو يرد على الطبيب:

-وما علاقة الانفعال بما هي فيه؟

رد الطبيب بنفاد صبر:

-عندما تشتد الضغوط النفسية فإن الإنسان يهرب إلى العقل الباطن ويتخيل حيوات أخرى غير حياته البائسة تلك ويدخل في غيبوبة أو سُبات وهي حالة عميقة من عدم الوعي يكون فيها غير قادر على الاستيقاظ، كأنه داخل حلم طويل لا ينتهي.

سأله بأسى:

-ومتى تستيقظ أو ينتهي الحلم؟

-حين ينتهي السبب أو تتجاوزه وتقرر عودتها إلى الحياة.

-هل تشعر بما يحدث حولها؟

-ربما نحن لا نملك أدلة على ذلك فهي في مرحلة من مراحل النوم العميق.

خرج الطبيب من الغرفة وتركه يواجه سيل الاتهامات من أمه بمسؤوليته عما حدث، لم يحتمل شعور الذنب وخرج إلى الشرفة ليحرق أنفاسة بعلبة من السجائر ومزيد من الحبوب المهدئة.

****

-2-

الطريق مظلم وطويل كل ما يميزه صوت الأمواج المتلاطمة ورائحة البحر وثمة ملوحة في الجو تملأ حلقي، أتساءل بدهشة:

-ما الذي جاء بي إلى هنا أنا لم أرَ البحر طيلة حياتي ولو لمرة واحدة من قبل فنحن الفقراء الكادحون لا نعترف برفاهية المصايف ولا بنزهة الرحلات.

سرت في الظلام أنتفض من برودة الجو تسحبني أشعة القمر المنعكسة على وجه الماء نحو البحر، وكضوء انفلت من مصباحه أنساب نحو الرائحة حتى اصطدمت قدمي ببرودة الماء في نفس الوقت الذي ظهر فيه قرص الشمس الأحمر في الأفق البعيد، صرخت بمرح طفولي من فرط النشوة وأنا أخبط قدمي في الماء فيتناثر الرذاذ حولي حتي امتلأ الجلباب الواسع بالماء وانتفخ كمظلة ضخمة.. نزعته وتركته يطفو فوف الماء وثنيت السروال الجينز وبدأت أدور وسط المياه في دوائر وأنا أغني وأصفق، ولم أشعر بالأقدام التي تتوافد على الشاطئ حتى انفلتت طفلة من يد أبيها واقتربت مني وهي تحاول تقليدي فتصفق وتدور مثلي.. انتبهت إلى العيون التي تتلصص عليّ لمست شعري المبعثر على وجهي والذي يتطاير منه رذاذ الماء في كل الاتجاهات

وانسحبت إلى صخرة كبيرة بجوار الشاطئ بينما اندفعت الأقدام إلى الماء كأنهم مثلي يرون البحر لأول مرة.

-هل تسمحين لي بالجلوس؟

قالها شاب وهو يقترب من الصخرة، أومأت رأسي بلا مبالاة، أفسحت له مكاناً بجواري وعيناي معلقة بالأمواج المتلاطمة وبقرص الشمس الذي لازال في مكانه ولم يتحرك منذ ظهوره.

-هل هذه هي الزيارة الأولى لك للبحر؟

لم أرد

-أقيم هنا منذ زمن ولم أرَك من قبل.

نظرت إليه في بلاهة من لا يعرف الرد فشعر بالحرج:

-آسف إن كنت تطفلت وأقحمت نفسي في خلوتك.

همّ بالانصراف فقلت بسرعة:

-لا بأس اجلس هذه هي المرة الأولى التي أحضر فيها إلى هنا ولا أعرف أي شيء.

-واضح أنك غريبة عموماً نحن نعرف الغرباء.

شعرت بالخجل فقال بسرعة:

-انظري إلى كل هؤلاء هم مثلك جاؤوا لأول مرة.

نظرت إليه لأسأله عن طريقة معرفته للغرباء، لكنه بادر وقال:

-عملي هنا هو معرفة الغرباء ومساعدتهم بقدر الإمكان.

وفجأة اقتحم أذني صوت هادر يشبه الرعد فرفعت رأسي إلى السماء ورأيت العديد من السفن الفضائية التي تنطلق بسرعة قصوى، ارتجفت من الخوف وسألته:

-ما هذا؟

-لا تقلقي ستفهمين كل شيء في الوقت المناسب فقط حافظي على هدوئك.

أخذت نفساً عميقاً وأنا أنظر إلى البحر وأقول:

-يبدو أن عقلي لا يستوعب كثيراً من الأمور.

-كلنا هنا مثلك لا نختلف سوى أننا جئنا قبلك وألفنا ما يحدث.

-لم نتعرف حتى الآن اسمي راشيل خريجة كلية علوم وتكنولوجيا.

-واسمي بيبرس خريج علوم فائقة.

-لم أسمع بها من قبل.

-ربما تسمعين عنها من بعد الآن.

نظرت إلى ملامحه المألوفة كذكري بعيدة وقلت:

-هل رأيتك من قبل أقصد في مكان آخر غير هنا.

كان على وشك أن يخبرني بشيء ما رأيته في لمعة عينيه حينها أظلمت السماء فجأة وامتلأت بالدخان، أمسك يدي وسحبني كي أركض معه وهو يصرخ:

-يجب أن تركضي بسرعة ولا تتنفسي هذا الدخان فهو يصيب المخ بغيبوبة دائمة.

وضعت يدي على أنفي وفمي وأنا أركض بأقصى سرعة، الكل يندفع ولا يعرفون طريقهم لكنه يقودنا خلفه ويجرني من فوق الأرض جراً حتى ظهر نفق أمامنا فدلف منه ونحن خلفه يصيح فينا:

-احذروا السلالم الرخامية.

هبطنا الدرج بحذر ووجدنا أنفسنا نسير داخل ممر طويل يتخلله بعض المصابيح الكهربية الباهتة، وقف فجأة وأشار لنا بالتوقف، تفقد الناس حوله يحصيهم ويعدهم فيجدهم لا يتجاوزون أربعة أشخاص أما الباقي فلم يفهموا ما يحدث ولم يستجيبوا إلى أوامره، أعطى كل واحد منا رقماً معدنياً وأمرنا أن نعلقه في ملابسنا ولا ننزعه مهما حدث، أشار لنا على الطريق الذي سنسلكه ثم استدار عائداً ناديت عليه، فقال:

-اذهبي الآن وسوف أعود فيما بعد.

حاولت تبين المعالم حولي فلم أجد سوى ثكنات تشبه الثكنات العسكرية لكل واحد مكان محدد يحمل رقمه، فلتُ من الجماعة التي أسير معها ودخلت إحدى الثكنات، وقفت أتأمل وجوه الناس المغبرة والمذعورة والجائعة والتي تعاني أرق النوم والتوتر، نظرت حولي ولم أجد مكاناً خاوياً لأجلس فيه فأشار لي رجل عجوز يجلس بلا مبالاة، اقتربت منه فأفسح لي بجواره، قال وهو يشعل بقايا سيجار:

-يبدو إنك غريبة عن هنا من أي سرداب جئت؟

-لم آتِ من أي سراديب لقد كانت لنا حياة طبيعية نعيش في بيوت ومدن و...

-إذاً لقد ناداك.

-من هذا الذي ناداني؟

أغمض عينيه وانتفض جسده وهو يقول: "هجرس".

ثم نهض من جواري مفزوعاً، كنت على وشك الصراخ عندما شعرت بالأجساد المتلاصقة تسحب الأكسجين من المكان لكني شعرت بألم الجوع ينهش بطني، نظرت إليهم عرفت أنهم لايقلون بؤساً عني وأنهم لن يفيدوني في شيء فوجوههم تفضح ملامح الجوع والألم لا أعرف ما مشكلتهم وما

الذي جاء بهم إلى هنا، صرفت عيني عنهم وبحثت عن العجوز حتى وجدته، سألته كيف أعثر على الطعام أشاح وجهه ولم يرد فوجهت سؤالي لآخر كان يجلس جواره، هز رأسه وقال:

-لا تقلقي اقترب موعد الإفطار.. سيمرون علينا بالحبوب.

قلت بدهشة: حبوب! تقصد شوفان مثلاً!

-لا إنها غذاء متكامل في شكل حبوب، تمد الجسم بالطاقة اللازمة للحركة.

قلت باختناق: أين أنا؟

-أنت في بؤرة العالم ستفهمين كل شيء وحدك فقط أنصتي إلى صوت عقلك.

اقترب مني العجوز وهمس في إذني:

-إذا أردت أن تكوني في أمان لا تكثري من الأسئلة أو الكلام كي لا تغضبيه.

-أغضب مَنْ؟

-هجـ .. هجـ.. رس

لازال يصل إلى مسامعي أصداء تأتي من الخارج تشبه صوت الرعد مصحوبة بصيحات متتالية فترتجف القلوب من الرعب دقائق تمر كأنها أمد طويل حتى تنتهي فيصيح أحدهم:

-لقد مرَّ.

هتفوا كلهم في صوت واحد:

-الشكر.. الشكر

فتحوا أبواب السراديب وزحفوا للخارج كأسراب النمل ينظرون إلى شهاب أحمر طويل وهو ينسحب ويبتعد، التقطت أذني حواراً دار بين اثنين متجاورين، قال أحدهم:

-هذا هو المذنب الثاني لهذا الأسبوع.

عقّب الآخر: المشكلة في الزلازل التي تأتي تباعاً بعد رحيله.

هنا أدركت أنني داخل فيلم سينمائي من أفلام الرعب أو الخيال العلمي التي تتنبأ بكوارث كبرى تؤدي إلى نهاية العالم، أنهكني الجوع فجلست على الأرض بدوارٍ خافتٍ، أرى الأشياء تتماوج أمامي والوجوه تذهب وتجيء.. السماء تنكمش على الأرض.. والشمس باهتة كضيف ثقيل.. نكستُ رأسي على صدري وغبت للحظات لا أدري هل نمت أم غُشي على

حينها انغمست يد في يدي تهزني وتترك فيها شريطاً به ثلاث كبسولات متوسطة الحجم، نظرت إلى صاحب اليد فوجدته من الجنود الذين يحملون شارات مجهولة الهوية مسلح بجميع أنواع الأسلحة كأنه قادم للتو من معركة حربية شرسة الضراوة، قبضت يدي على الحبوب دون أن أجرب صوتي بالسؤال عن شيء، نظرت حولي فوجدتهم يضعون الحبوب في أفواههم بلذة، سقطت عيني على يدي الممسكة بالشريط وأخرجت كبسولة.. كنت على وشك وضعها في فمي عندما أمسك العجوز بيدي وأخذها مني ووضع بدلاً منها ورقة مطوية ثم ابتعد، فتحت الورقة وقرأت الكلمات بسرعة: "لا تتناولي هذه الحبوب كي تحتفظي بعقلك.. اتبعيني"

نظرت إليه خيالاً يسير ويبتعد فاستجمعت ما بقي من قوتي ونهضت أتبعه حتى وجدته يرفع غطاء بالوعة ويدخل منه فدلفت خلفه قبل أن يغلقه؛ الظلام حالك والبرد يسلسل أطرافي فتصطك أسناني محدثة صريراً خافتاً لاح ضوء شمعة وحيدة يتوسط المكان، اقتربت من مصدر الضوء فوجدته يتوسط المائدة بهيبة كأنه خلع عنه رداء الخوف خارجاً، يجلس حوله عدد من الرجال والنساء العجائز.. قدمني لهم رغم عدم معرفته بي لكنهم يعرفون الغرباء سمعت ما يشبه عبارات الترحيب فقال مؤكداً:

-لم يكتشفوا وجودها بعد.

سمعت أصوات كثيرة لم أتبين منها سوى صوت لامرأة لعله يشبه صوت أمي:

-لقد اشتقنا لرؤية الجمال في الوجوه والصفاء في الأرواح.. حدثينا عن الطبيعة والزرع والشجر هل لازالت توجد عطور ونساء تتزين هل يصبغون ثيابهم بألوان غير الأسود والأزرق هل يلعب الأطفال في الشوارع ويصدح المذياع بالأغاني.. هل مازلتم تتفننون في إعداد أصناف الطعام ..

لم يوقف سيل كلاماتها سوى العجوز:

-مهلاً .. مهلاً حتى تستريح.

أشار لي كي أجلس على المقعد الخاوي جواره وقدم لي طبقاً به بعض التمر والتين المجفف فالتهمته بنهم ولم أنتبه إلى العيون التي تراقبني حتى انتهيت وشكرته فجفل وقال:

-بل اشكري الله لأننا هنا.

-أريد أن أفهم ما يحدث وأين أنا؟

-ستفهمين كل شيء في حينه لكن أولاً هناك احتياطات يجب عليك الالتزام بها؛ لا تتناولي أي شيء يعطونه لك ولا تتحدثي مع أي أحد من

القطيع حتى آذن لك وإن صادفك أحد من الجنود في طريقك تجاهليه ولا تنظري إليه وأكملي طريقك كي لا تثيري الريبة حولك.

-لماذا لم تتركني أتناول الحبوب.

-علاوة على أنها فيتامينات تحوي على مواد تسيطر على العقل وتجعلك تتقبلين كل شيء دون تفكير تذكري إنك لن تستطيعي الاحتفاظ بعقلك إلا إذا امتنعت عن تناول طعامهم.

أومأت برأسي وقلت بعد تردد:

-من هم ومن أنتم؟

-من هم؟ سؤال صعب لن أستطيع الإجابة عليه في الوقت الحالي ومن نحن؟ نحن الذين نعرف حقيقتهم لكننا نختبئ داخلهم كي نحتمي منهم.

كنت على وشك إلقاء سؤال آخر في ملعب حديثه لكنه قاطعني محذراً:

-ألم أقل لك لا تكثري من الأسئلة!

فتلجمت وأخذت أنظر إليهم في صمت أشار لهم بالحديث، فقالت إحدى العجائز:

-يجهزون لشيء غامض.

رد العجوز بحزم كأنه القائد:

-أعرف كل خطواتهم وكل مخططاتهم كنت جزءاً من كيانهم حتى ضحوا بي.

أطرقوا روؤسهم وتحاشوا النظر في عينيه بعد أن تجلت بها الدموع لذكري بعيدة غرزت ألمها في قلبه:

" ثلاثة لا رابع لهم.. محاكمة من طرف واحد محاكمة بلا شهود أو أدلة أو إدانة والمتهم ابنته والقاضي هجرس وهو يقف كقضبان حديديه لسجن موغل في الوحشة، حيث قيّد روحه وألقاها في غياهب الوهم وهم التغيير لكنه لم يكن سوى شبح التدمير، يصيح هجرس في وجهه بقسوة:

-يجب أن تنفذ فيها حكم الإعدام بنفسك.

-لكنها ابنتي.

-هذه خطيئة أخرى لا تُغتفر لم تعرف كيف تسيطر على ابنتك في الوقت الذي تخطط فيه معي للسيطرة على العالم.

-إنها في طور الشباب ويملؤها الحماس للتعمير لا التدمير.

أطلق قهقهة مفاجئة أضافت إلى قبحه قبحاً:

-عن أي تعمير تتحدث؟ تعمير لهؤلاء البدائيين الذين يتقاتلون ويتناحرون بلا سبب.. هؤلاء الرعاع الذين لا هم لهم سوى ملء البطون والجيوب.

-سيدي! قالها برجاء أخير

-لا تراجع ستقتلها الآن أمامي.

يمد يده ليعطيه سلاحاً متطوراً مصنوعاً بأحدث تقنية وهو يقول بشفقة مصطنعة:

- أعدك ألا تشعر بالألم ولن تنزف قطرة دم واحدة ستموت الموت الرحيم فقط صوب في اتجاه القلب وسيتوقف نهائياً في أقل من ثانية.

نظر إلى السلاح وأظلمت عيناه وغاب عن العالم ربما خُيّل إليه أنه يسمع صوتاً يشبه بكاء ابنته أو أنها تبكي بالفعل وتستغيث به قبل أن تخور قواه ويسقط على الأرض ذاهلاً، فلم ينتظره حتى يفوق وينهض التفت إليها وصوب السلاح نحوها ضغط بلمسة واحدة فخرج شعاع أحمر اخترق القلب، لم تستغرق بعدها جزء من الثانية وفارقت الحياة، نظر خلفه فوجده يتمتم بعبارات الندم:

-ليته ما جاء.. ليته ما كان.. ليته لم يحدث.

اتخذ قراراً سريعاً بالتخلص منه، حرك يده بالسلاح في اتجاه رأسه وأطلق شعاعاً أزرق فسقط على الأرض وغاب عن الوعي.

استدعى الجنود الرابضين بالخارج وقال بنبرة غضب:

-ألقوا جثتها للكلاب وهو ضعوه وسط القطيع عندما يفيق لن يتذكر أي شيء وإذا تذكر ستقوم الحبوب بدورها.

هذه هي اللحظة الفارقة التي قلبت كل الموازين معه لا ينكر أنه كان يستعد لها بتجاربه التي ثبت نجاحها فلم يؤثر فيه الشعاع الأزرق لكنه قرر أن يواجه هذا الصديق الذي لا صديق له وأن يفسد كل خططه التي ساهم في تخطيطها وساعد في الإعداد لها فلا يعرف مذاق الطعام إلا صانعه ولا يفسد الوصفة إلا من يعرف أسرارها، وعلى حافة الخراب بدأ يبني عالمه السري عالم الحياة وسر بقاء الإنسان على الأرض.. العالم الذي تمنت ابنته أن تعيش فيه وتمنى هو أن تعود لتكون هناك لقد عاش أكثر مما يستحق لكنه لازال يصارع كأنه الوتد الذي يُثبت فيه العالم الجديد.

انتبه من شروده فوجدهم غارقين في الصمت والذكريات فلكل منهم مأساة لا تقل قسوة عن مأساته تلقيهم في غربة تنهش أرواحهم، أنهى الاجتماع وأذن لهم بالانصراف.

****

-3-

لا أعرف ما الذي جاء بي إلى هنا كل ما أعرفه أنّه استدعاني ذلك الشبح الذي لا أعلم عنه شيئاً، ذلك الذي يتحكم في حياتهم وموتهم من يخطط للبقاء أو الفناء، لكن لمَ أنا راشيل حسن؟ هل يلتقط اليائسين من الحياة كي يخضعوا لمشيئته المشؤومة، لم يقل العجوز سوى أنني أفلت من قبضته في لحظة قدرية قيّدها الله لنجاتي.

ما الذي يحدث هنا.. هل خرجت إلى بُعدٍ آخر أم أنني لازلت في عالمي أو لعلّه كابوس راودني في نومي حاصرني بتفاصيله الثقيلة ولا أعرف طريق الخروج.

أين الزرع.. أين الشجر.. أين المباني والحدائق والمدارس.. أين السيارات والقطارات والدراجات، سطح الأرض خاوٍ من كل شيء لا يوجد سوى تلك السراديب كأنها زنازين من العصور القديمة أو مقابر جماعية لشعوب هاجمتها الأوبئة الشرسة.

وهذا الذي لا أعرفه يتحكم في أوقات بقائهم فيها أو خروجهم منها، يدير أوقات النوم واليقظة الأكل والجوع والجميع ينصاع ويطيع كأنهم آلات لا إرادة لها ولا تجيد شيئاً سوى تنفيذ أوامر مركز التحكم.

لكني لازلت بشرية. قال العجوز: تظاهري بالخضوع والانصياع، زرع شريحة تحت جلدي، قال إنها بديلة لشريحتهم، وقال إنه طوّرها يكفي أن تصدر موجات بوجودي ولا تستقبل إشارتهم بالتحكم فيّ، وقال إنني من القلة الذين يملكون عقولهم، وقال إنه في حاجة إليّ كي نعود إلى عالمنا القديم.

آه عالمنا القديم أشتاق إليه بقدر شوقي للحياة التي حُرمت منها، أشتاق إلى نسيم الصباح ورائحة القهوة وطعم الفول والطعمية.. أشتاق إلى قطرات الندى على وجه الزرع إلى زي المدرسة ونشرة الأخبار، إلى صافرة القطار ونداء الباعة.. أشتاق إلى ألوان الملابس وملمس الستائر.. أشتاق إلى صوت الأذان والإقامة.. إلى تراتيل الفجر ومدفع رمضان.. أشتاق إلى صلاة العيد وصوت الحجاج "لبيك اللّٰهُمَّ لبيك" أشتاق إلى نغمات الطيور وزقزقة العصافير وصوت الأغاني التي تخترق أذني في المواصلات.. أشتاق إلى الوقوف أمام واجهات المحلات ومشاهدة عروض الأزياء.. أشتاق إلى حُلي البنات

وأصباغ الشفاه وألوان صباغات الشعر.. أشتاق إلى مشاهدة المسلسلات والأفلام الهادفة وقراءة الكتب وتصفح مواقع الإنترنت.. أشتاق إلى النظر في المصحف.. لماذا لا يوجد هنا أية مصاحف.. لماذا لا يمارس الناس أية شعائر دينية.. لماذا لا توجد مساجد أو كنائس.. لماذا لا توجد صلبان في المعاصم ولا راهبات بزيهم الرمادي ولا بنات بحجاب ولا يوجد مشايخ أو قساوسة؛ أين ذهب كل هذا لماذا لا أستطيع السؤال أو الحصول على إجابة، حتى العجوز لا أستطيع الاقتراب منه أو الحديث معه، ومنذ ذلك اللقاء السري لم أكرر حواري معه.

أعيش غريبة في جسدي.. غريبة في عالم غريب لم أقترف ذنباً سوى أني رفضت الخيانة.. الخيانة بجميع تحولاتها وأشكالها؛ خيانة الأمانة خيانة الوطن خيانة الصديق خيانة الحبيب.. ماذا أفعل إذا كان الله هو الذي خلقني هكذا بوجه واحد لا يتلون وقلب واحد لا يتبدل وإيمان ثابت لا يتزعزع.

كل ما أريد أن أعرفه الآن لماذا استدعاني أنا ولم يستدع هؤلاء الخائنين والحاقدين والكارهين والطامعين كان سيكون التحكم فيهم أيسر من عنيدة مثلي تسعى دائماً وراء الحق والحقيقة.

ترى ما الذي فعلته وأغضبه وأي قوى هي له ليخترق حدود الزمان والمكان ويأتي بي إلى هذا العالم الخرب؛ لعله كابوس.. كابوس مخيف لا أعرف متى أسيقظ منه.. أريد أن أستيقظ.

مرت ثلاثة أيام وهي نائمة لكن خالد لم يمكث جوارها أكثر من لحظات ولم يؤلمه ضميره لأكثر من دقائق فهي مجرد امرأة من كثيرات عرفهن في حياته ولا يميزها عن الأخريات سوى أنها ابنة خالته التي دائماً ما كان يعتبرها أختاً له، لكن أمه رأت أنه لا أحد يستطيع إصلاحه سوى ابنة خالته المتدينة الورعة العاقلة التي تقضي جُلّ وقتها في المسجد.. يعرف أنه ظلمها وظلم نفسه لأنه ما كان يصلح للزواج ولا أن يكون أسير امرأة واحدة أومُلكاً لإحداهن.

هو ضعيف أمام كل امرأة جميلة رخيصة مبتذلة خائنة متحررة منحلة، يعشق الغانيات والراقصات والفاتنات يعاني الشبق أو الهوس أو به خلل عقلي لعلّه في حاجة إلى علاج عند طبيب نفسي متخصص في تلك الحالات الحرجة، لكن هذه هي حقيقته التي لم تستوعبها أمه وظلمت ابنة أختها حكمت عليها بالموت المؤقت عندما زوجتها منه.

خالتها سعاد هي من تجلس جوارها وعندما أرادت أن تستيقظ أو حاولت أن تستيقظ كعادتها عندما تهاجمها الكوابيس حاولت رفع يديها وتحريك رأسها يميناً ويساراً وهذا ما فعلته؛ فرحت سعاد عندما رأت تلك الحركات العشوائية وأسرعت إلى الممرضة التي تناوبت النبطشية لتخبرها بسعادة "فاقت.. فاقت" نفضت الممرضة النوم عن عينيها واقتحمت الغرفة، هزتها بيديها.. ضغطت على الصدر الذي كان يعلو ويهبط بانفعال.. رفعت جفنيها فظهرت حركة العين السريعة التي تخبر أن النائم لازال يحلم تركتها الممرضة في خيبة وذهبت لتكمل نومها.

جلست سعاد أمامها شعرت باليأس ينخر قلبها وهي ترى أمانة أختها التي توفيت منذ عام وأوصتها عليها لم تستطع حمايتها من نزوات ابنها الذي لا زال يعيش طيش الشباب، الآن تُدرك مدى الجرم التي ارتكبته عندما زوجتها منه على أمل أن تدعم هشاشة روحه فتنبت زهرة التقوى في قلبه لكنها أخطأت لو عاد الزمن للخلف لما زوجته ولما ظلمتها، مالت على رأسها لتقبلها معتذرة ففلتت منها دمعة ساخنة انحدرت على وجه راشيل لعلها شعرت بها فارتعش فمها، مالت عليها وهمست في أذنها:

- ابنتي راشيل إن كنت تسمعيني فاعرفي أن خالتك جانبك ولن تتركك وحدك حتى لو ضحت بابنها الشقي، ستبقى بجوارك لكن أرجوك لا تُخجليني أمام أمك وترحلي بهذه السرعة كيف سأواجهها وما حجتي أمامها عندما تسألني عنك هل سأقول لها لم أستطع الحفاظ على أمانتك فرطت فيها وأهدرت شبابها؟ أرجوك يا راشيل عودي إلى حياتك إلى المسجد إلى صديقاتك عودي إلى خالتك يا حبيبتي.

جاء خالد التقطت عيناه بقايا دموع أسرعت يدها إليها لتنكر وجودها نظر إليها بشفقة:

-أمي لا تهلكي نفسك بالحزن إنها بخير.

-من أين تعرف إنها بخير وقد احتار الأطباء في حالتها؟

-إنها ليست الحالة الأولى ولا الأخيرة لقد أخبرني صديق أن حالات عدم الاستيقاظ من النوم أصبحت كثيرة ولا يعرفون لها سبباً رغم أنّ جميع أجهزة الجسم تعمل بشكل طبيعي.

-دعك من هذا الهراء وقل لي لماذا تشاجرت معها؟

-إنها لا تكف عن الشك والمحاسبة طوال الوقت.

-الشك! سهرك ومبيتك كل يوم خارج البيت وهي لا تكف عن الشك! هل كنت تريدها أن تصفق لك وتقول ممتاز ما تفعله يا حبيبي.. ممتاز أن تتركني وتذهب لغيري.. ممتاز أن تقتل شبابي وأنوثتي وتعيش حياتك كما تريد كحيوان لم يُروّض.

-كفي يا أمي أنت مثلها.

-نعم أنا مثلها وقد أخطأت عندما زوجتها منك.

لم يحتمل تعنيفها فخرج إلى الردهة ليشعل سجائره.. ينفث دخانها بعنفٍ.. يحاول الخروج من المشهد.. الانفصال عن الحدث.. يحاول التملص من أصابع الاتهام التي تشير عليه وسط رنات الهاتف التي تدوي بتلك الأغنية الأجنبية التي لا يفهم معنى لها سوى أنها أغنية رومانسية تصرخ فيها حبيبة على حبيبها، يعرف أن الرقم يخص صديقة قديمة اشتاقت إليه.. وضع الهاتف على وضع الطائرة وجلس خائر القوى ينظر إلى الخَواء والعدم:

-صديقات.. رفيقات.. عابرات.. خائنات.. زميلات.. غاويات، لماذا أنا؟ لماذا يلقين بأنفسهن في طريقي وأنا كأي رجل يمارس حريته لا يستطيع الصمود أمام عيون أنثى جائعة فلترتوي كما تشاء ولأرتوي معها فلتزدهر وتتفجر

أنوثتها ولأزدهر معها لكنها أمي هي من أصرت أن تخطفني من هذا العالم وتلقي بي في غياهب السجن والآن جميعنا ندفع الثمن.

نعم إنه كابوس لكني لا أستطيع الاستيقاظ منه كما أفعل في كل المرات السابقة، شش.. شش أسمع صوت خالتي أنها تبكي وتعتذر لكن هناك ذبذبات تتداخل مع صوتها.. تختفي شهقاتها يبتعد صوتها.. تنادي على خالد:
-الحقني يا خالد راشيل اختفت دخلتُ الحمام وعدتُ ولم أجدها.
أبصره يتلفت حوله كمجنون.. يبحث في ردهات المستشفى.. يسأل كل من يصادفه لكن رويداً رويداً تختفي صورته من أمامي.. صداع يغزو رأسي.. لا أستطيع الإبقاء على عيني مفتوحة.. أغلقها أستسلم للظلام الذي يتغلغل في روحي.. لا أسمع سوى صوت ارتطام أمواج البحر الذي يحاصرنا بصوت قوي يصمُّ أذنيّ لكأنه داخل السرداب أو السرداب داخل البحر فأفيق على رائحة العطن أفتح عيني ببطء ولا أرى سوى تماثيل بشرية تتراص بجوار بعضها بلا أي ملامح تميزها إلا من بطاقة التعريف التي تحمل رقم صاحبها؛ ففي هذا العالم يتحول البشر إلى مجرد أرقام بلا أسماء يُعرفون بها ولا دليل على وجودهم سوى تلك البطاقات ولا يحصلون على

حصتهم من الغذاء والدواء إلا بتلك الأرقام، لابد أنهم فقدوا هويتهم أو معدمو الهوية، لا ينتمون إلى عالم الأحياء ولا يعرفون أي شيء عن العالم القديم.. كأنهم ولدوا وعاشوا هنا.. لكن بالتأكيد يوجد بينهم غرباء وافدون قادمون مثلي يحملون في طياتهم أسرار الألم وأسباب الموت المؤجل.

أنتبه على صوت أنين طفل.. أبحث عن مصدر الصوت فأجد صغيراً ينكمش في زاوية يمسك برأسه ويتوجع، كنت على وشك أن أحضنه وأسأله عما به حتى أشار لي العجوز بالابتعاد، عدت إلى مكاني وأنا أتصنع أنني ألتقط شيئاً من على الأرض، فاقترب العجوز وهو يهتز وهمس في أذني: "يجب أن تعتادي على هذه المشاهد إنها جلسات تعليمية.. أقصد أنهم يتلقون التعليمات التي سيقومون بها في المستقبل".

دفنت رأسي بين ساقي وأنا أغالب دموعي.. لابد أنهم فقدوا مشاعر الشفقة عاطفة الحب قيمة الرحمة! أي ألم يعانيه هذا الصغير وأي تعليمات تلك التي تجعله يئن كقط صغير يحتضر.

لكن إن كنت جئت إلى هنا رغماً عني، وإن كان الله ألقى في طريقي هذا العجوز؛ فلابد أن هناك مهمة سأقوم بها.. لابد أن هناك دور يبقيني على قيد الحياة.

تُرى نحن في أي وقت الآن؟ وأي أذان كان من المفروض أن يؤذن؟ أعرف أنهم لن يؤذنوا ولن يصلوا.. لن يبتهلوا بالدعاء ليتخلصوا مما هم فيه.. لكني أشتاق إلى الصلاة في حاجة إليها كيف أصلي دون أن تلتقطني كاميرات المراقبة المترامية في كل مكان.

يا الله كم كنت في نعّم لا أشعر بها.. لكنها طبيعة الإنسان لا يشعر بقيمة الشيء حتى يفقده ولا نشعر بقيمة من حولنا حتى يموتوا حينها يتحولون في نظرنا إلى أبطال وإلى أولياء وإلى قدوات كأنهم ما كانوا بيننا، لم أعرف أنني كنت أحب أمي كل هذا الحبّ إلا حين ماتت.. ذبلت بعد زواجي وداهمها المرض لا أدري لماذا بهذه السرعة هل لحزنها على فراقي أم لحزنها على حالي بعد معرفتها بأفعال ابن أختها رغم صمتي وعدم الحديث أمامها بمشاكلي معه أم أنها كأم شعرت بما كان وما سيكون لمست كل تلك التعاسات التي عشتها معه وبكل ما عانيته من حرمان نفسي وعاطفي كان يشاركني الفراش بجسده فقط لكن عقله مغيب بأخريات وقلبه مشغول

بحبيبات وعينه ممتلئة بفاتنات.. وتركني لحزني وحسرتي على نفسي، وكأي امرأة في سني كنت أقارن نفسي بصديقاتي وما يروينه عن سعادتهن الزوجية لم يكنَّ أكثر مني جمالاً وعلماً لكنهن سعيدات فزنَ بأزواج أسوياء.

تعمق داخلي شعور اليتم والانكسار وكلما ازداد تجاهله لي كلما تزعزعت ثقتي في نفسي وجمالي رغم كل محاولاتي للفت انتباهه؛ أذهب إلى الكوافير عدة مرات في الشهر أطوف على محلات ملابس اللانجري وأتفنن في اختيار العطور ومساحيق الجمال، لكنه لم يتأهل ليتنفس عبير زهرة وحيدة لدرجة أصابتني باليأس والإحباط.

ولا أنكر أنه رغم إيماني رغبت في الموت مرات ومرات.. ولن أدعي أنني لم أفكر في الانتحار.. الموت أفضل لي من وسوسة نفسي ويأس روحي وكم مرة تعمدت وضع يدي على سلك الخلاط المقطوع لكني لم أحصل سوى على صعقات خاطفة كانت كافية أن تجعلني أبكي.. أبكي كطفل يتيم امتلك لعبة وحيدة في يوم العيد، ثم جاء طفل عبثي وحطمها لا لشيء سوى أنه استضعفه، شعر أنه سهل المنال لن يهاجمه ولن يدافع عن نفسه أو لعل

وجوده يذكره بنقاء البراءة فأراد أن يحطمه ويبدل قناعته ويترك قلبه هشاً لا يستطيع حب العالم أو حب من يحب العالم.

الآن أعرف إنه لم يكن يستحق كل هذه المعارك التي خضتها لأجله.. لم يكن يستحق كل هذا الاهتمام الشجن الحب الألم.. كان مجرد حشرة اعتادت أن تلهث خلف القازورات.

كان يجب أن أبحث عن عالمي وأن أعود إلى نفسي وأن أواصل اكتشافي للكون حولي وهذا ما كنت على وشك فعله عندما اندمجت في دائرة القراءة والاطلاع ولا أدري لماذا شدتني الكتب التي تتناول أحداث نهاية العالم هل كنت حقاً أتمنى أن ينتهي لأني لم أرَ فيه ثقب إبرة أنفذ منها أم كنت استعجل تلك النهاية.

شغلتني تفاصيل النهايات المحتملة نهاية الطبيعة التي باتت وشيكة وتلك المخططات التي تحاول السيطرة على العالم والحرب البيولوجية التي تضيق الخناق على الناس وتقطع بهم الأمل في الحياة، أيام وليالي مضيتها وأنا أرتب أحداث النهاية هل سيمر المذنب أولاً ويقلب الحياة رأساً على عقب فتختفي دول وتتدمر دول أو سيسبقه غزو فضائي للأرض فيحتلونها ويتخلصون من جنس البشر أم أننا بصدد تجارب علمية سيكون نجاحها دمار كوكب

الأرض واختفائه من المجموعة الشمسية أم أن القوة الأقوى الباقية ستتخلص من أعداد البشر ولن يتبقى سوى القلة القليلة التي يسهل السيطرة عليها والتحكم فيها، وهل قرأت عن فيروس غامض ينتشر بسرعة الريح ويحصد في الأرواح ما لم تحصده الحرب العالمية الأولى والثانية أم أنّ النهاية ستحدث بزلزال قويّ يدك الأرض في غمضة عين وتتلاشى معها الحضارة الحديثة لنعود إلى نقطة الصفر إلى البدائية الأولى لنحارب بالسيف والخنجر ونسافر بالجمل والحصان، أم أن كل ما سبق هو خطة النهاية.. ماذا كنت أقول خطة النهاية! منذ قرأت عنها صدفة وأنا أبحث عنها في صفحات النت وفي المواقع الأجنبية، هل هذا هو سبب مجيئي إلى هنا إنني عرفت أكثر مما ينبغي معرفته أم أن هذه المواقع مراقبة من هجرس وتابعة له أو لعلّه المسؤول الأول والأخير عما وصلنا إليه من دمار أم أنه من يخطط وحده للنهاية ويحتاج إلى جنود مجندة!

****

-4-

ككل الصباحات الباهتة في هذا السرداب كنت أمارس طقوسي اليومية غارقة في التسابيح وترتيل القرآن بقلبي حين لمحت أحدهم يسترق ابتسامة خاطفة بفمٍ خاوي من الأسنان لا أدري لماذا أغلبهم لا يمتلكون أسنان ربما لأنهم لا يحتاجون إلى عملية المضغ فكل طعامهم حبوب يبتلعونها دون حاجة إلى أسنان، لكنها المرة الأولى منذ جئت أشاهد أحدهم يبتسم، بادله الجالس بجواره الابتسام وسرعان ما تحولت إلى قهقهات عالية تنتقل من فرد إلى آخر كأنها عدوى تسري بين الجميع حتى العجوز تظاهر بالضحك وهو ينظر لي ففهمت أنه يجب أن أضحك مثلهم لعل هذا هو ميقات الضحك أو لعلهم يرسلون إشارت السعادة كي لا يفقدونها كباقي المشاعر التي أصبحت ذكرى بعيدة هل يذكر أحدهم متى أحب زوجته أو حتى أولاده متى شعر بالحزن أو الفرح لا أذكر أنني رأيتهم يتبادلون أية مشاعر.

قاطعهم أول من بدأ بالابتسام:

-سيأتي خلاصنا غداً.. ستنتهي كل معاناتنا.. سنتخلص من الظلام والألم والجوع.

وقفت مشدودة إلى كل كلمة يقولها فعقب آخر:

-سيأتي الفضائيون لينقذونا من هذا الكوكب سيأخذونا إلى كوكب آخر يعج بالحياة فقد وعدنا هجرس بأن يبعثنا إلى عالم أفضل من عالمنا.

تذكرت شعور الصعق بسلك الخلاط المقطوع.. شعرت بالكهرباء تسري في جسدي كله لدرجة أن الدنيا أظلمت حولي.. لم أعد أرى أو أسمع أي شيء، حتى انتبهت على صوت ضحكاتهم المدوية مرة أخرى، بحثت بعيني عن العجوز، رأيته يتسلل من بينهم، تبعته بحذر حتى ذهب إلى نفس المكان الذي تم فيه الاجتماع الأول، دخلت خلفه قبل أن يغلق الغطاء اتبعنا الضوء الخافت وسط المكان واتخذ مجلسه على رأس المائدة وجلست بجواره أنصت في صمت وتوجس:

_غداً سيبدأ السيناريو الأصعب سيتخلص من كل أعدائه.

قالت امرأة:

-نحن نعرف أنها إحدى حيله ليكتشف الذين يحتفظون بوعيهم.

قال رجل لم أتبين ملامحه لكن جاء صوته جهورياً وقوياً:

-ليكن ما يكون ليتخلص منا أو نتخلص منه.

رد العجوز بتعب:

-لقد بدأ النزال وسنستعد للمواجهة منذ الغد.. لكن أمامنا ليلة شاقة؛ سنجهز أجهزة التشويش كي نشوش على صور السفن الفضائية التي يبثونها بالهولوجرام.

قالت المرأة بيأس:

-أياً كانت أجهزتنا قوية فهي ضئيلة أمام أقمارهم الصناعية ومحطاتهم الفضائية.

قال الرجل ذو الصوت الأجش:

-عندما يسقط حجر صغير في الماء الراكد فإنه يحدث زوبعة ونحن سنثير زوبعة الشك حوله.

خرج صوتي مبحوحاً كأني لم أتوقف عن الصراخ منذ ماتت أمي:

-ألهذا أنا هنا هل لأنني عرفت؟

قال العجوز بأسي:

-نعم لكني لن أسمح أن يحدث لك ما حدث لابنتي.

قلت بدهشة:

-ابنتك هل كان لك ابنة؟ وماذا حدث لها؟

أطرق العجوز رأسه ونظر إليه الجميع بشفقة، مضت فترة من الصمت قبل أن يقول:

-قتلوها.. ويقتلون كل من يسعى خلف المعرفة.

سمعت صوت في رأسي يأتي من زمن بعيد:

-أمي أين أنت؟

الطرق طويل.. طويل بقدر مدينة هكذا تراءت لي المسافة من بيتنا إلى نهاية الشارع كنت نائمة لا شك في ذلك وكانت لي عادات غريبة في النوم فأنام لفترات طويلة ربما تصل ليوم كامل.. لكني في ذلك اليوم استيقظت على صوت عويل جدتي وصراخ أمي وبكاء الجارات لجمني الذهول والخوف معاً ولم أستطع سؤالهم عما حدث لكني لمحتهم من شرفة حجرتي يضعونه في صندوق خشبي مفتوح ويلقون عليه الأغطية هل كان نائماً مثلي أم أنهم يساعدونه على النوم لا أدري لكني سمعت جدتي تقول" مات ولدي".

صغيرة لا أعرف للموت معنى سوى ما حدث للدجاجة عندما مررت أمي السكين على رقبتها فرفرفت عدة مرات على الأرض ثم سكنت، وعندما

حان وقت الغداء وضعتها أمامي أنا وأبي وهي تقول: "كلي لتكبري" هل كان لابد أن تموت الدجاجة كي أكبر أنا؟ هل مرروا السكين على رقبته وأنا نائمة وهل رفرف على الأرض عدة مرات قبل أن يستكين؟ لا أدري لكنه مات كما قالت جدتي.

عندما لمحتني جارتنا العجوز أبكي وهم يحملون الصندوق ويبتعدون به قالت: "لا تحزني يا ابنتي لقد ذهب إلى الجنة"، ثم تركتني وذهبت تواسي جدتي، وظلت الجملة تتردد في أذني" لقد ذهب إلى الجنة.. لقد ذهب إلى الجنة" هل ذهب إلى الجنة حقاً؟ إن كان كذلك سأذهب إليه، خرجت إلى الشارع الخاوي بعد أن انطلق جميع الجيران خلف نعش أبي، تلفت حولي فلم أجد أي أحد وبعد عدة دقائق وقفتها حائرة ظهر أمامي رجل غريب الشكل فسألته وأنا أبكي"أين توجد الجنة" فأشار إلى آخر الشارع وقال: "هناك".

هكذا بدا لي الشارع طويلاً وأنا أسير وحدي لأول مرة دون أن أمسك يد أبي أو أمي، لكني أسمع صوت داخل رأسي يقول لي سيري لا تتراجعي اذهبي إليه لا تتركيه وحده في الجنة، سرت لنهاية الشارع في مسافة بدت لي كمدينة وعندما وصلت لم أجد سوى شوارع كثيرة، قال الصوت: واصلي

السير وستجدينها هناك في الشارع الموازي، كان هذا آخر ما تذكرته في هذا اليوم حتى بعد أن عثروا على بعد يومين لم أتذكر سوى أنني سرت لنهاية الشارع الذي بدا بامتداد مدينة.

لا أدري لماذا تذكرت تلك الحادثة عندما أخرج العجوز صورة ابنته وهو يقول لي:

-كانت تشبهك كثيراً انفطر قلبي عليها مرتين مرة عندما ضاعت مني وهي صغيرة ومرة عندما صدر بحقها حكم الظالم بالإعدام.

-وكيف ضاعت وهي صغيرة؟

-حادثة قديمة لا داعي لذكرها.

-لكني أهتم أريد أن أعرف.

-كانت بعمر أربع سنوات وكانت نائمة وكنت منشغلاً ببعض الأعمال عندما اتصلوا بي ليخبروني بوفاة أمها في حادث، شعرت أن ثمة شيء غير عادي في الموضوع فأصابتني حالة هستيرية من الضحك والبكاء، أخبرتني الخادمة فيما بعد أنها استيقظت مفزوعة فتحت الباب وخرجت وعندما اتبعتها لم تجدها اختفت بمجرد خروجها إلى الشارع كأن الأرض انشقت

وابتلعتها ولم نعثر عليها إلا بعد يومين وعندما سألتها أين كنت؟ قالت: لا أعرف ولا أتذكر.

أصابني الوجوم وخرج صوت كأنه ليس مني:

-لقد حدث معي نفس الشيء.

قالت المرأة بذهول:

-وهل ماتت أمك في حادث؟

-كان أبي.

-وماذا فعلت؟

-خرجت إلى الشارع ووجدت رجل غريب الشكل وقال لي اذهبي من هنا.

-وهل تتذكري ما حدث في هذا اليوم.

-عدت بلا ذاكرة لا أتذكر أي شيء.

شرد العجوز فيما قلت وأخذ يهمهم بكلمات غير مفهومة:

-هل يُعقل أن يكون هو من استدعاكم!

برقت عيناه والتفت لي:

-ما رأيك لو جعلتك تتذكرين.

-هل هذا ممكن؟

-بالعلم كل شيء ممكن.

وضع غطاء على رأسي يشبه الخوذة ونظر في جهاز أمامه وأعطاني صورة لرجل غريب الشكل.. ملامحه غير مألوفة يرتدي ملابس أنيقة، ركزت في وجهه اهتزت الصورة كأنها على وجه الماء، أغلقت عيني على مشهد يأتي من بعيد وأنا أجلس بجوار طفلة تشبهني، نبكي من الخوف ومن البرد وهو يقف أمامنا ينتصب بطوله الرهيب وملامحه الغريبة وهو ينظر إلينا في صمت ثم صرخ فجأة:

-كُفا عن البكاء.. أريد أن أنقذكما من نفسكما.. أنت (أشار إليّ) ستتزوجين رجل تحبينه ولا يحبك.. وأنت (أشار إلى الطفلة الأخرى) سيغدر بك حبيبك وبسبب خيبتكما ستذهبان إلى بوابة المعرفة وأنا أحذركما..

أشار بالسبابة في وجهينا وخرج من عينيه شرر أحمر فصرخت وصرخت الطفلة الأخرى حتى سقطنا على الأرض غائبتين عن الوعي، خرج مني صوت يشبه الصراخ فأسرع العجوز ونزع الخوذة وهو يهزني:

-اهدئي.. اهدئي.. لقد انتهى أنت هنا معنا.

دخلت في نوبة من البكاء فضمني في صدره وهو يملس على شعري بحنان أبوي ويتمتم بكلمات لا أكاد أسمعها:

-أخيراً عثرت عليك.

حركة غير عادية.. جنود يسيرون جيئةً وذهاباً.. رجال يبحثون في أغراضهم عن كل ما يصلح ليحملوه معهم ونساء يتزين بما تبقي لديهن من أدوات زينة، والغريب أنني أول مرة أشاهد الأطفال سعداء ويجرون خلف بعضهم بمرح.

يوم غير عادي؛ القلوب مشحونة بالأمل بالرغبة في التخلص من براثن الانتظار.. الانتظار الذي رضخوا فيه منذ سنوات مُذ جاؤوا إلى هنا رجال بلا عمل بلا عائلة بلا هوية ونساء وجدن أنفسهن بلا بيت يديرونه أو مطبخ يقضين فيه جل وقتهم وأطفال بلا مدارس أو أماكن للعب، استطاع هجرس أن يخضعهم لإرادته وأقنعهم بأنه أنقذهم من الفضائيين الذين كانوا على وشك تدمير الكوكب لكنه تصالح معهم وعقد معهم معاهدة صلح وتبادل الهجرة بيننا وبينهم وقد أعلمهم منذ أيام بموعد أول رحلة للأرضين إلى الفضاء الخارجي وهجرتهم إلى كوكب الفضائيين

مجهولي الهوية البعض يقول أنهم من كوكب المريخ والبعض يرجح أنه كوكب بعيد خارج مجموعتنا الشمسية أما المجموعة الثالثة أكثر تشاؤماً ويرون أنهم لم يأتوا من الفضاء الخارجي بل جاؤوا من باطن الأرض من الأرض السابعة؛ أقاويل كثيرة لا دليل على صحتها.. لكن العجوز وحده هو من يعرف الحقيقة لقد شارك في مخططهم حتى قتلوا زوجته وأعدموا ابنته فقرر أن ينقذ ما يمكن إنقاذه.. هو يعرف حقيقة كل ما يحدث فقد كتبه بيده وخططه بعقله.

الغريب أنهم تركوه حياً بمحاولة اغتيال عقله، كان من الممكن أن يقتلوه وينتهي أمره.. قبل أن يقف أمامهم في يوم من الأيام ويواجههم، ربما كان لهذا الهجرس بعض المشاعر التي منعته من اغتيال رفيق دربه، تركه يعيش أمامه وتحت رقابته، لكنها لم تكن مشيئة هجرس إنها مشيئة الله الذي أراد أن تستمر الحياة أو بعض الحياة على هذا الكوكب البائس حتى حين.

لازالت العيون معلقة ناحية السماء والجنود ينظمونهم في طوابير وجماعات، بحثت عن العجوز ولم أجده، عرفت أنه يستعد لمواجهة ذلك الخطر القادم.. وفجأة صدر صوت يشبه صوت أزيز الطائرات وبدأت أنوار تجتاح السماء وتظهر أطباق طائرة وسط هتافات الناس وفرحتهم وما هي إلا ثوان

معدودة وبدأت الأنوار تتذبذب وتتفرق صور الأطباق وتبتعد، وانبعث صوت طنين ليغطي على صوت الأطباق الطائرة.

كانت تبدو كسفن حقيقية حتى تدخل العجوز فظهرت كخدع بصرية، لكن من هذا الهجرس الذي سيطر على كل وسائل التكنولوجيا حتى لم يعد لها وجود سوى بوجوده، ومن هذا العجوز الذي يعرف كل شيء ولا يُعرف له اسم، بالكاد استطعت معرفة الاسم الحركي له فهو يُدعي سامي برهام بالتأكيد له اسم آخر خفي لا يعرفه سواه، وأيضاً باقي المجموعة السرية لا يختلفون عنه في شيء، والمثير للدهشة أنهم كلهم من العجائز لم ألمح بينهم شاباً واحداً، وهذا ليس له سوى تفسير مقنع أن جميع الشباب مغيبون أو ولدوا في عصر ما بعد الكارثة، لا يعرفون أي شيء عن الماضي والحياة القديمة، اعتادوا الحياة في السراديب والظلام، يتعلقون بأوهام لا صحة لها ويصدقون أكاذيب باطلة ليس لهم هدف أو أمل في الحياة.

انزعج الجنود من موجة التشويش وأمروا الناس بالعودة إلى السراديب بأقصى سرعة، وبينما الناس يهرولون في فوضى جاء طبق طائر حقيقي وهبط خلفهم، أسرع إليه الجنود يحاوطونه كنوعٍ من الحماية من أي

محاولة اغتيال، خرج منه شخص ضخم أنيق يرتدي قبعة كبيرة تغطي جزءاً كبيراً من وجهه فلا يظهر سوى الفم.. أخذ يصرخ في الجنود:

-ابحثوا عنهم أنهم في مكان قريب من هنا.

رد قائد الجنود:

-لا أحد هنا يملك أجهزة تشويش جميعهم تحت السيطرة.

صرخ بصوت هادر:

-ليس جميعهم هذا خطئي كان يجب أن أقتله وألحقه بزوجته وابنته لكني أشفقت على الصداقة التي كانت بيننا، منذ اليوم لا وجود للشفقة ولا للصداقة سوف أعدمه أمام الجميع حتى يعرفوا جزاء من يخالف إرادتي.

يعطي إشارة للجنود فينتشرون في المنطقة كل مجموعة تسير في اتجاه محدد.. لكن من كتب الخطة وأعد لها استطاع التمويه وإخفاء الإشارة.. كشف عن وجوده وأخفى إمكانياته.

كنت أحسبني أشتهي الموت في حضرة الحياة لكني اكتشفت أنني عاجزة عن مواجهته، وداهمني القلق المباغت من انكشاف أمري وأمر العجوز وليس أمامي سبيل سوى التوغل في ممارسة التخفي، تمنيت أن أذهب إلى العجوز لأعرف كل تفاصيل المواجهة لكني بعد أن رأيت ما حدث سرت في نهر

الناس المندفعين بخوف نحو السرداب وما أن وصلنا حتى أغلق الجنود الباب علينا ولم أتمكن من رؤية الطبق الطائر الحقيقي ولا ذلك الذي كان يهدر بصوت كالموج الصاخب ليس لدي شك في إنه هجرس جاء بنفسه ليحمي عالمه وأتباعه من صديقه العدو، بحثت وسط الناس عن أي وجه أعرفه لكني لم أجد سوى وجوهاً تحمل ملامح الرعب واليأس.. يعرفون أن هناك شيء خاطئ يحدث وأنهم وحدهم من يدفعون الثمن لكنهم لا يملكون حق السؤال أو إمكانية الكلام لا يملكون الرفض أو الموافقة فعقولهم ملك لهجرس يبث فيها ما يريد لا ما يريدون مساكين أصبحوا مجرد أدوات عرائس متحركة يشدها الآخرون بخيوط محكمة.

الأمل الوحيد في الخلاص هو العجوز، بقاؤه على قيد الحياة هو السبب الوحيد في عودة هؤلاء العاجزين إلى حياتهم الطبيعية أو عودة عقولهم إلى طبيعتها.. أخذت ابتهل إلى الله في الظلام وأدعوه لينجي العجوز ويحافظ عليه حتى يأتي الخلاص.

ليلة ثقيلة مرت على الجميع كقطار أنهكه طول الطريق فأخذ يبطئ لا أحد يجرؤ على التعليق أو الكلام، فقط ألقوا بأجسادهم على السرائر راجيين النوم أن يخطفهم في سكينة مؤقتة أو يهبط طائر الموت ويخلصهم من كل

ذلك، أخذت أنفاسهم ترتفع بضيق وشهقات مكتومة حتى فرض الظلام سطوته وأرسل أتباعه البرد والنوم والكوابيس.

ناموا وبقيت أبحث عن مخرج أو طريقة أستطيع بها الهروب من السرداب والوقوف بجانب العجوز لكني كنت على يقين أنه لا يوجد مقدار ثقب إبرة خارج السيطرة، بالإضافة إلى انتشار الجنود بكثافة في الخارج فتذكرت ما طلبه مني العجوز حين طلبت الانضمام إلى فريقه "ابقي على وضعك في السرداب حتى تكوني بأمان وسط الناس وإذا استطاعوا الوصول إلينا والتخلص منا سيقع على عاتقك أن تواصلي ما بدأناه" نعم يجب أن أبقى حتى تشرق الشمس وتزول ظلمة اليأس يجب أن أتمسك بالحياة حتى ننجو من الهلاك المخيف.

****

-5-

هذا الخواء الذي يحيط بالعالم هذا الكابوس الجاسم فوق الصدور.. اليأس الذي يطل بوجهه القبيح ليل نهار حلم خلاصهم الذي مات بلا مقدمات لكن ثمة شيء اختلف في الوجوه ثمة نظرة في العيون تُخبر بأنّ هناك شيئاً تغير؛ العيون تتحدث بصمت تتلاقي النظرات وتتحد التعبيرات؛ هل نجح العجوز في اختراق شباكتهم وتحرير العقول من مركز التحكم هذا ما يبدو لي فلم تعد هناك استجابة للأوامر لم يعودوا ينامون في الظلام ويستيقظون في الصباح لا يمتثلون لأمر البقاء في السرداب يقضون أوقات طويلة أمام البحر يسبحون ويتسامرون لا يلقون بالاً بالجنود الذين يقطعون الطرق جيئةً وذهاباً ولا بالأصوات التي تهدر من مكبرات الصوت لتحذر من مخالفة الأوامر.

أما الأمر الذي فاق كل التصورات هو ظهور جثث لبعض الجنود من وقت للآخر، حرص هجرس على نزع كل وسائل الدفاع منهم لدرجة أنهم لا يحلقون إلا بإذن رسمي منه شخصياً يُرفع الطلب للجندي المسؤول والجندي يوصله إلى رئيسه حتى يصل إلى يد هجرس بنفسه لكنه إن نجح

في تجريدهم من كل الأسلحة، فقد بقيت لهم أيديهم لم يقطعها وهؤلاء الجنود ماتوا خنقاً.

كنت أراقب الأحداث المتلاحقة بأمل أن أرى العجوز مرة أخرى لعلّ ما يمنع ظهوره أن هجرس ازداد حضوره في المنطقة كان يحضر بنفسه التحقيقات ويعاين الجثث وهو يهدر بصوت كالرعد ليرهبهم لكن أي رعب يؤثر فيهم فهؤلاء ليس لديهم ما يخسروه لا يملكون سوى أرواحهم التي تسري في أجسادهم حتى هذه ليست ملكاً لهم فهي ملك لله أمانة وسيأتي وقتها لتُرد، وهذا ما حدث بعد فشله في العثور على العجوز؛ طبق أحكام الإعدام في حق كل من يخرج من السرداب بدون إذن أو يعترض على أمر من الأوامر وكل من تثبت عليه تهمة التفكير وتبدو في عينيه نظرة الحياة.. لعله أراد ألا تكون هناك حياة أن يبقى هو وحده على الأرض ولا وجود للآخرين إلا كعبيد له، لقد قرأت كل هذه التفاصيل من قبل أثناء سهري وحدي في الليالي الطوال وبحثي في شبكات النت عن غرائب الأخبار بدأ الأمر بقراءة بعض المقالات عن نهاية العالم والاحتمالات المتوقعة لحدوثه وتعمقي في البحث عن حقيقة الكائنات الفضائية وتاريخ النيازك التي ضربت الأرض في الماضي وتطور أسلحة الدمار والحروب المتوقع

حدوثها بين الدول الكبرى.. آه لقد تذكرت لقد رأيت الرجل صاحب القبعة من قبل رأيته في عدة صور من لقاء الرؤوساء والساسة كان يظهر في كل اللقاءات من الخلف بقبعته المميزة وطوله الغريب لم أكن أعرف ما دوره في تلك اللقاءات لكني الآن على يقين أنه هو من دبر كل تلك الحروب والكوارث التي حدثت طوال قرنين من الزمن،

كم عاش هذا الهجرس وكم سيعيش كي ينهي الحياة على سطح الأرض؟

ولماذا يسعى إلى نهايتها من الأصل ما مشكلته مع البشر؟

لماذا يتخلص منهم بهذه البشاعة؟

إنه العجوز من يملك وحده إجابة كل الأسئلة لكنه حذرني من لعنة المعرفة.

الوجوه مرآة القلب وأحياناً مرآة العقل وكثيراً ما تكون مرآة الروح، هكذا كان يضبطهم الجنود متلبسين بالسعادة أو الخوف أو القلق فيطبقون أحكام الإعدام، كنت أجيد إخفاء وجهي فلا يروني سوى شاردة لكنها لحظات أكره فيها نفسي وأمقت جبني فأي لعنة ستصيبني بعد كل هذا الخراب لقد كانت حياتي مع زوجي وتحملي خياناته وتجاهله لي أهون على

من كل هذا كان يكفيني أن أنام وأستيقظ وقتما أشاء.. كان يكفيني أن أقف في المطبخ ساعة لأعد أشهي الطعام.. أتدفأ من برد الشتاء وأتقي لفحات الحر.. كان يكفيني أن أملك حق الحديث وحق السكات حق المشي في الشوارع والتنزه في الحدائق، أين أنا من كل هذا.. ما كان يجب أن أقرأ أو أعرف بي أو من غيري كان العالم سينتهي سواء عرفت أو جهلت كان المخطط سيُنفذ رضيت أم أبيت كان سيحدث.. لعنة الله عليه كيف عرف أنني عرفت؟ لعله ذلك المنتدى الذي دخلت فيه كان يحمل اسم المحاق للوهلة الأولى ظننت أنه منتدى ديني فتحدثت عن علامات الساعة والأحداث التي تسبقها.. حمقاء لقد كشفت عن معرفتي كراهبة تتعرى من ملابسها في شارع خاوٍ ظناً منها أن لا أحد يرى لكنهم رأوني وعرفوني واستدعاني هجرس إلى عالمه.

أيها العالم الخرب الذي جاء على جثة الوقت ونصب مذابح للبشرية.. تُرى كم سنة مضت حتى وصلت إلى هذا الخراب، أم أن الأحداث المتلاحقة عجلت من النهاية ووصلنا إلى هنا في أقل مما هو متوقع ومخطط حدوثه.

هل تجلت لهجرس الحقائق الخفية فبحث عن الخلود وجند جنوده الحمقى من نسل من تعلم الأسماء كلها وتعلم ما لم تعلمه الملائكة فأنبأهم بأسماء

الشجر والدواب والجبال لكنه بعلمه لم يُعصم من الخطيئة وبعلمه لم يمنع الأخ من سفك دم أخيه، حتى جاء نوح وأراد أن يغسل الأرض من كفر البشر فقال يارب لا تدع على الأرض أي أحد من الكافرين فاغتسلت الأرض وبكت السماء لكن الخطيئة لم تزل ولن تـزول وعبدوا من دون الله أصناماً وصلوا للشهوات وقدسوا المال واتبعوا من قال لا لن أسجد للطين وأنا النار.

انتبهت من شرودي على صوت بكاء امرأة، كانت متقوقعة في زاوية بعيدة منكمشة على نفسها تضم ساقيها بيديها وتدفن رأسها بينهما، اقتربت منها ولامست رأسها فانتفضت مذعورة، همست في أذنها:

-لا تخافي.. ما بك يا أختي!

لم ترد واستمرت في البكاء حاولت بث الطمأنينة في نفسها:

-منذ متى وأنت هنا؟

-لا أعرف فهنا لا نعرف الزمن ولا نشعر بمروره هم يقولون جاء الصباح جاء المساء لكنه وقت زائف غير حقيقي.

-اسمعي أنا مثلك وقد حدث لي ما حدث لك.

قالت بلهفة:

-وهل قتلوا زوجك وأبناءك.. أنا الآن أتذكرهم أراهم في عقلي بوضوح.. كنت من قبل أرى أشباح تشبههم تقول لي (لا تقتربي ابتعدي عنا أنت شؤم.. أنت قتلتينا) لكني الآن أتذكر لحظاتهم الأخيرة وهم يبكون ويستنجدون بي.

أصابني الوجوم فلم أكن أتوقع تلك النهاية المأساوية لأسرة تعيش في أمان قلت بأسى:

-وما جريمتهم.

-بل جريمتي كنت مهندسة اتصالات أعمل في شركة كبرى وصادف في يوم أنه تغيب زملائي عن العمل ولا يوجد من المهندسين غيري وقد تعرضت أجهزة الحواسيب لهجوم فيروسي وأصبح العمل بها صعباً وطلبوا مني أن أنظف الأجهزة وبدأت في مسح الفيروسات لكني وجدت فيروساً غامضاً لا يكتفي بتعطيل البيانات بل يضع مكانها رمزاً غريباً، وكنت ماهرة في هذه الأمور فقد حصلت على عدة دورات في الشبكات ومحترفة في اقتحام المواقع وتتبع البيانات فتتبعت الفيروس حتى وصلت إلى مصدره واطلعت على معلومات سرية عن مخططات لنهاية العالم.. وفجأة أظلمت الشاشة

وظهرت أمامي علامة الجمجمة شعرت بالخطر وخرجت من الموقع بسرعة ومحوت كل آثار اقتحامي لكني عندما عدت إلى المنزل فوجئت بزوجي وأولادي مقيدين ومجموعة من الجنود يذبحونهم أمامي.

وضعت يدها على أذنيها وأغمضت عينيها: لا زال صوتهم في أذني.. أمي.. أمي لا تتركينا صرخت صرخت وألقيت نفسي عليهم لكنهم أطلقوا عليّ أشعة زرقاء ثم نسيت كل شيء ولم أتذكر سوى اليوم.

صمت طويلاً وأنا أفكر في كل ما سمعته، لعنة المعرفة يقتلون العائلة وينفونهم إلى هنا يقطعون الجذور كي تتعفن الثمار يقطعون الورد ويتركون الشوك في الأرض يتركون أمثال زوجي بكل قبح أفعاله ويقتلون أطفالاً أبرياء لا ذنب لهم سوى أن أمهم وقعت صدفة في شرك المعرفة.

ربت على كتفها وهمست:

-تحملي سوف نأخذ بثأرنا ونعود إلى عالمنا.

نظرت لي نظرة تساؤل وأمل فقلت:

-نحن مثلك لكننا نسعى إلى إنقاذ الآخرين.. دورنا الآن أن نبحث عن أمثالنا وأن نخفي قدراتنا على التذكر.

ابتسمت وهي تشد على يدي، جلست بجوارها ننظر إلى الوجوه التي تتألم في صمت لكنها لا تكشف عن أسرارها، أسندت رأسي على الحائط وأنا أتذكر طفولتي البائسة التي قضيتها في اليتم وانكسار أم لم يكن لها من بعد الله سوى أبي الذي رحل في حادث مباغت فصبت في نهري كل حبها ومودتها، ربما سمعت من قبل مقولة أن من الحب ما قتل ولم أعيها وقتها، ذلك الحب الذي دفعها إلى الخوف على وترقب كل حركاتي وسكناتي اختبار جذوة مشاعري في أوقات الرضا والغضب.. الفرح والحزن مما عمق داخلي إحساس الذنب وجعلني أحبس جميع مشاعري وأكبت كل رغباتي كأنثى؛ أرتديت الحجاب في سني الصغير كي تطمئن على تركت الأغاني وكل تفاهات المراهقة واتجهت إلى حفظ القرآن الكريم وسماع دروس الدين وحضور حلقات المسجد، كنت أرى سعادتها وهي تراني أسير في طريق الله فيزداد حمدها وشكرها ورغم كل الإيمان الذي يمتلئ به قلبها لم تتخلص من شؤم النبوءة التي أخبرتها بها العرافة.

ذات يوم وأنا بنت خمس سنوات؛ كنت مريضة وأعاني الحمى فحملتني وذهبت بي إلى الطبيب وفي طريق عودتنا لم تكن تبصر أمامها من فرط الدموع التي تغطي عينيها فتعثرت وسقطت بي.. تعفر وجهها في التراب

الذي اختلط بالدموع وترك خطوط من السواد على وجنتيها.. أمسكت بي لتطمئن على وجلست على الرصيف تبكي وتبكي كأنها تشتكي للشوارع وحدتها وانكسارها.. التفَ النسوة حولها مصمصنَ شفاههن ثم مضين مرددات عبارات الشفقة: "لا حول ولا قوة إلا بالله" "ربنا يساعدها " ومرت غجرية من جوارنا صدفة وعندما رأت أمي بحالتها البائسة جلست جوارها دون أن تدعوها للجلوس وأخرجت ودعها ووشوشته وألقته على الأرض، نظرت إليها أمي بفزع وقالت: "ما بي" قالت بتوجس وهي تنظر إلي: "ليس بك بل بها"، ضمتني أمي إلى صدرها وهي تنتحب "ستضيع مني مثل أبيها"، فقالت الغجرية: "لن تضيع لكنها ستمر بالكثير من الصعاب ستوشك مركبتها على الغرق وستهاجمها العواصف من كل ناحية فتذكري أن تسلميها ليد أمينة".

أمي المسكينة كانت تظن أن هذه اليد الأمينة هي يد ابن أختها وتوءمها وأنه سيحرص عليّ بحكم القرابة، ومضت أربع سنوات مرت معه في مرار كان الحاضر الغائب الذي يعذبني بخياناته، أغمضت عيني على حزن قديم ولم أنتبه للصوت الذي كان يحدثني إلا عندما هزني بلمسة من يده، فتحت عيني لأجد وجهاً لم ألحظ وجوده من قبل بين هؤلاء البؤساء، قال بحذر:

"اتبعيني" واستدار يترنح يميناً ويساراً كأنه مجذوب، تسللت خلفه إلى إحدى الخرائب التي يتجمع فيها المجذوبين واختفى في جُحرٍ يشبه جحر الفئران فدخلت خلفه وسرت في ممر طويل انتهى إلى باب مغلق تركني أمامه وعاد أدراجه من حيث أتى، وقفت ألتقط أنفاسي بشعور غريب أن خلف الباب مفاجأة في انتظاري، أخذت نفساً عميقاً.. وطرقت الباب ففتحوا لي، لمحت العجوز بين حشد من أجهزة الحاسوب فرفع رأسه نظر لي وهو يبتسم ليمنحني الطمأنينة، أردت أن أهرول لأرتمي بين ذراعيه.. أردت أن أدفن رأسي في صدره.. أردت أن أخبره كم أشتاق إليه وأخاف عليه.. شعرت في هذه اللحظة أن أبي الغائب في رحلة الموت تجسد في شخص هذا العجوز، وكأنه قرأ كل ما يجول في خاطري فنهض لاستقبالي، اندفعت الكلمات من فمي كالسيل:

-لقد كنت قلقة عليك وبحثت عن طريقة للوصول إلى هنا و...

قاطعني بلطف ليختصر الوقت:

-لا تقلقي على عجوز مثلي أكل الزمان منه وشرب نحن بخير إلى الآن ولم ينجحوا في الوصول إلينا أخبريني عن حال الناس.

-حالهم صعب يدمي القلب كأنهم في مرحلة غفوة ما بين النوم واليقظة.. يتذكرون حياتهم القديمة للحظات قليلة كافية أن تُعيد إليهم الشعور بالألم.

-سيعودون بالتدريج لكن دورك أن تثبتيهم.. تمنحيهم الأمل في عودة الحياة إلى طبيعتها.

-أحاول بقدر استطاعتي.

-لن أستطيع إحضارك إلى هنا مرة أخرى أخشى أن يتتبعوك ويكشفوا أمرك لذلك سيكون صديقي بيبرس حلقة الوصل بيننا.

التفتَ إلى الخلف ونادى: بيبرس تعالَ إلى هنا.

خرج من خلف أجهزة لا أعرف ماهيتها واقترب منا يصوب عينه في عيني مباشرة كأنه بدأ المهمة التي كُلف بها للتو فأسرعت وقلت:

-لقد التقينا من قبل فهو أول من رأيته هنا.

-وبفضله لم يتحكموا فيك.

راودني شعور أنني رأيته من قبل أو ألتقيت به ذات مرة غير تلك التي كانت عند البحر وغير هذه المرة التي أقف فيها أمامه لكن الذاكرة تخونني كعادتها أرى الأشياء في خيالي ولا أتذكرها، ابتسم بود ومحبة ووقف أمامي.

-إنه صديقي بيبرس برغم صغر سنه أعتبره صديقي الوحيد ورفيق دربي.

أومأت برأسي مرحبة فعاد إلى عمله بينما العجوز صافحني مودعاً ومتمنياً لي التوفيق في مهمتي التي كلفني بها.

****

-6-

استيقظت في اليوم التالي على صوت شجار بين امرأتين نهضت مسرعة كي أنقذ الموقف قبل أن يصل إلى مسامع الجنود ويتدخلون بطريقتهم وجدت امرأتين تشبهان الليل والنهار السماء والأرض إحداهما في غاية الجمال والأخرى قبيحة بشكل مزعج، كانت الجميلة شبه منهارة وتصرخ وهي تحاول غرز أظافرها في المرأة الدميمة التي اتضح أنها من جنود هجرس بالكاد استطعنا الإمساك بالجميلة وسط تهديد القبيحة بالتخلص منا والإبلاغ عنا لكن رجالنا أدركوها قبل أن تغادر السرداب وفعلوا معها اللازم، جلست بجوار الجميلة وربت على كتفها في محاولة لتهدئتها انفرطت في البكاء وبعد أن هدأت تلفتت حولها ووجدت الجميع ينظر إليها بشفقة قلت لها:

-لا بأس وراء كل واحد هنا قصة كبيرة ولا مانع أن نحكي لبعضنا لا تخافي منا كلنا مثلك.

-لا أخاف ولا يوجد شيء لدي أخاف عليه..

-ما قصتك؟

أخذت نفساً عميقاً ونظرت إلى ضوء المصباح الباهت وبدأت تحكي كأنها تذكر نفسها بما حدث:

-داخل كل منا عالم خيالي يتحدى به بؤس الواقع المرير، فيهرب من الحقائق المؤلمة إلى أريحية التمني؛ كأن يتمنى المرء أن يكون زوجاً لأخرى أكثر جمالاً أو يتمنى عملاً مرموقاً غير عمله المكلف به.. لكل منا أحلامه وآماله ولعل يكون أحدنا له من الصلاح ما يجعل بعض الرؤى والأحلام تتحقق.. لكن علاقتي بالأحلام تختلف عن الجميع فأنا أعيش الأحلام كحياة أخرى لم تكتمل..

شعرت أنها مغرمة بالألغاز وتتحدث بغموض أو لعلمها تواري كلامها فعقبت:

-يبدو كلامك غير مفهوم ويحتاج إلى توضيح.

-أنا فتاة منحني الله قدراً من الجمال ما يسرق عين أي إنسان يراني.. لكن أمي التي خشيت عليّ من أعين الناس خبأتني أغلقت عليّ الأبواب ولم تترك أي أحد يراني حتى نسي الجميع وجودي.. كنت صغيرة لم أفهم سر ما تفعله غير أني كنت حزينة لحرماني من طفولتي.

حكايتي مع الأحلام بدأت منذ ذلك الزمن عندما كنت نائمة أحلم أنني ألعب وأملأ الشارع صخباً حتى ساعة متأخرة من الليل فجاءت إحدى الجارات لتعاتب أمي على تركها لي حتى هذا الوقت، لكن أمي غضبت منها وأخبرتها أنني نائمة في فراشي والمرأة تجادلها ولم تهدأ حتى أخذتها إلى حجرتي ورأتني غارقة في النوم.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد أخبرت عمتي أبي بأنها أرسلت له بعض الأوراق الهامة معي أثناء زيارتي لها والغريب أن أبي عثر على الأوراق في حجرته، بدأ أبي يرتاب مني ويعرضني على بعض المشايخ الذين أخبروه بأن بي مس والجني الذي يسكنني هو الذي يفعل ذلك.

اشتد خوف أمي وزاد حرصها عليّ فكانت تنام جواري وتقضي أغلب وقتها تراقبني، وكل ذلك لم يمنع الأحلام فقد كانت صديقاتي تخبرني عن زياراتي لهن ولعبي معهن لكن خوفي على أمي علمني الكتمان فلم أكن أخبرها بشيء إلا ما تعرفه عن طريق الصدفة فيجن جنونها وتعود بي إلى الشيخ الذي يكتب لي حجاباً أو تعويذة ملفوفة في قطعة صغيرة من القماش وتأمرني أن أعلقها في رقبتي.. لكن هذا الحجاب لم يمنع اختفائي ليوم كامل بعد شجاري مع أخي، استيقظت أمي من النوم ولم تجدني بجوارها

بحثت في البيت وفي الشارع وعند الجيران وحين لم تجدني أرسلت أبي وأقاربي يجوبون الشوارع بحثاً عني، فتشوا القرية كلها ولا أثر لي، وعندما يئسوا من العثور على وبعدما ملأت أمي الدنيا بصراخها وجدوا من يحملني ويسأل عن أبي فقد عثر عليّ أبكي بجوار بيته في قرية أخرى غير قريتنا وبالكاد عرف مني اسمي واسم أبي وظل يبحث حتى نجح وأعادني إليهم، والغريب أن أهلي فرحوا بعودتي ولم يسألوني عما حدث وأنا نسيت هذا اليوم الثقيلة أحداثه ولم أعد أذكر سوى أنني كنت أريد العودة بشدة.

بعد هذه الحادثة صار الجميع يتعامل معي بحذر خشية أن أغضب أو أثور، مضى زمن طويل وأنا لا أري أحد ولا أتحدث مع أحد لدرجة أنني نسيت الكلام؛ فعندما تسألني أمي عن رغبتي في الطعام لا أدري ماذا أقول فأهز رأسي بالموافقة أو بالرفض في أغلب الأحيان.

كبرت وكانت دراستي منزلية ورغم ذلك نجحت.. وصرت لا أخشى سوى أحلامي؛ أخشي أن يوقع بي أحدهم أو يستغلني آخر أو ينتهك براءتي ذئب بشري، صرت حذرة في أحلامي فإذا اقترب مني رجل غريب أبتعد وإذا لمسني أضربه وإذا نظر لي أصرخ في وجهه، اعتاد الجميع على صراخي أثناء النوم ولا أحد يعلم ما يحدث.

كان هذا قبل أن ألتقي به في "الأتوبيس" وأنا عائدة من رحلة مشتريات، شعرت إنني رأيته في مكان ما أو عرفته من قبل لكن لا أتذكر أين وكيف، ثم فوجئت به يتحدث معي بود غريب وحين وجدني مندهشة قال:

-هل نسيت؟

تصنعت عدم التذكر فقال:

-أتذكرين عندما كنت تركبين زورقاً وسقطت وأنت تحاولين لمس الماء بيدك فألقيت نفسي وراءك وأنقذتك.

تذكرت أنني رأيت هذا المشهد في أحلامي من قبل، فادعيت التذكر وقلت:

- لم يسعفني الوقت كي أشكرك لكني ممتنة لك كثيراً.

- سبحان الله لا أعرف لماذا يخالجني شعور أنني أعرفك منذ زمن طويل، وأن مشهد سقوطك في الماء رأيته مراراً قبل أن يحدث في الحقيقة.

صحت داخلي: رباه هل وجدت من يتحدث لغتي في هذا العالم!

ابتسمتُ ابتسامة مجاملة ثم ترجلنا وعرجت في طريقي إلى المنزل، ظل يلاحقني بنظراته حتى اختفيت عن ناظريه.

كنت أعلم أنها البداية وربما أقابله صدفة مرات أخرى، وهذا ما حدث كنت أراه في أحلامي بجوار الشاطئ فيجلس معي بالساعات نتحدث عن أحلامنا الغريبة.

حتى فوجئ أبي بزيارته لنا وطلبه الزواج مني ولم أرفض حلم حياتي، تم الزفاف وسط دهشة الجميع.. كنت أشعر في هذا اليوم أنني ملكة متوجة وهو في غاية الفرحة بي كأنه لا يصدق إن ما يحدث حقيقة، وانقضت ليلة من أجمل ليالي عمري، ثم بدأت أهرب من أحلامي وأشغل وقتي بمشاغل الحياة وكل تفكيري هو إرضاء زوجي الذي كان في غاية السعادة معي ويتفاخر بي بين أهله ويغدق على من الثناء أمامهم مما أشعل الغيرة في قلب إحدى قريباته التي كانت تمني نفسها بالزواج منه فأخذت تكيد لي؛ بدأت تختلق القصص عن سوء معاملتي لها وتتصنع البكاء أمام زوجي مدعية مواقف لم تحدث وأنا أنكر معرفتي بها من الأساس، ورغم يقين زوجي بحقيقة كذبها إلا إنها سببت لنا الكثير من المتاعب مما كدر صفو حياتي، ولم تتوقف وبدأت تستخدم حيل الأنثى لجذبه إليها كانت تفعل هذا أمامي ولقلة خبرتي بالحياة لم أعرف كيف أصدها وأصرفه عنها، لكنها نجحت في صنع فجوة بيني وبينه تتسع وتتعمق بمرور الأيام حتى حاصرتني الغربة

في بيتي ومع أقرب الناس لي.. لم أجد ما أتغلب به عليها سوى الهروب من مرارة الواقع إلى أريحية الأحلام.. وأخذت أتتبعها في أحلامي حتى رأيتها وحدها في شقتها تهيئ نفسها للقاء زوجي.. ذهبت لتنعش نفسها بدش ساخن فأسرعت أغلقت عليها باب الحمام من الخارج وقطعت التيار الكهربائي وأغلقت كل الأبواب والنوافذ كي لا يسمعها أحد، ثم أكملت نومي ولم أستيقظ إلا على صوت زوجي الذي جاء غاضباً بعد انتظاره لها لساعات طويلة وعدم ردها على الهاتف، لكن ما حدث لها في هذا اليوم كان كافياً لأن تفقد عقلها وكافياً لأن أنسى ما فعلته بي.. أما زوجي فقد بدأ يعود لرشده بعد تخلصه من حصارها وعاد إلى ما كان عليه معي يملأ قلبي وعقلي وروحي بمحبته.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أتسبب فيها بأذى لإنسان لم أفعلها من قبل ولم أسعَ لفعلها مرة أخرى لكن هي من دفعتني لذلك، هي من تطفلت على حياتي وألقت نفسها في طريقي.

عدت أعيش حياتي بشكل طبيعي أبتعد عن الأحلام وأشغل نفسي بعالم الواقع حتى استيقظت في يوم شتائي شديد البرودة وأنا أتذكر ما حدث في صغري عندما اختفيت ليوم كامل، ولم يعرف أي أحد أين كنت؛ تذكرت

إنني أحاول قتل زوجي وبجواري رجل عجوز يشبه ذلك العجوز الذي كان معنا كان يبعدني عنه وهو يصرخ:

-لا تفعلي لا تفعلي إنه يحبك.

يحاول نزع السكين من يدي ويأخذني بعيداً عنه، فأجد نفسي طفلة في مكان غريب لا أعرفه فأظل أبكي وأنادي على أبي كي يأتي ويأخذني.

أخذت أفكر في هذا اليوم ما الذي فعله كي أقتله.. هل يخونني مرة أخرى؟

لم أجد ما أفعله سوى أن أقطع الشك باليقين ذهبت لأفتش في أوراقه الشخصية وفي جيوبه وأدراجه ومتعلقاته الخاصة لم أجد ما أبحث عنه حاولت تجاهل الأمر كي تمضي الأحداث بشكل طبيعي حتى جاء اليوم الذي كنت أحاول فيه التخلص مما أصابني من هواجس؛ ذهبت إلى كافتريا على شاطئ البحر فلا شيء يستطيع تهدِئتي سوى التأمل في أمواج البحر الهادرة وبعد فترة من جلوسي وحدي وحديثي مع البحر رأيت زوجي قادم مع امرأة دميمة رغم كم المساحيق التي تضعها على وجهها لكنها لم تنجح في إخفاء قبحها، كان يتحدث معها بابتسامة عريضة ممسكاً يدها وقد ألقت رأسها على كتفه بطريقة ملفته لكل من يراهما، انصرفت بسرعة قبل أن يراني وألقيها لأسماك القرش عدت إلى البيت وأنا أغلي والنار تحرق قلبي

تتأجج داخلي بغضب مريب وأنا أفكر ماذا فعلت به كي يخونني مع تلك القبيحة فأنا لا يشغلني شيء في هذه الحياة سوى سعادته!

خشيت من نفسي التي لا أستطيع التحكم فيها ودعوت الله ألا يعود هذه الليلة كي لا أقتله، وقد استجاب دعائي فلم يعد متحججاً ببقائه مع أخيه الذي سُرقت شقته في ظروف غامضة، لم أنم حتى الصباح وأنا أفكر كيف سأواجهه، كانت فكرة القتل تسيطر على عقلي لكني كنت أهرب منها.. حتى غلبني النوم فرأيتني وأنا طفلة أنام بجوار أمي، ثم يأتي العجوز ويأخذني معه وعندما سألته إلى أين نذهب طلب مني ألا أتحدث.

ذهبت معه رأيت أطفال فقراء يأكلون القمامة ورأيت نسوة عرايا لا يجدون ما يسترون به أجسادهم ورجالاً يُجلدون قهراً، وعندما بكيت من شدة ما رأيت أخذني وذهبنا إلى الشاطئ وأشار إلى بيت جميل على حافة البحر داخل الأمواج وقال:

-إذا اشتد بك الألم اذهبي إليه إنه يخصني وقد بنيته لكل الذين يسافرون في أحلامهم.

لكني أفلت منه.. هربت ورأيتني كبيرة أمسك سكيناً وأبحث عن زوجي أفتش عنه في كل مكان.. والعجوز يجري خلفي.. يسحب من يدي السكين

ويأخذني إلى باب مغلق في شقتي يفتحه ويدفعني داخله فأرى زوجي يحتضن أشيائي ويبكي ندماً.

قال: هيا اذهبي إلى بيتك على حافة البحر واتركيه سيقتله الندم.. مثلك لا تصلح للحياة في عالم اليقظة.

بعد جهد للتغلب على نفسي استجبت للنصيحة، لملمت ذكرياتي وما تبقى مني وذهبت إلى بيتي الجديد حيث عالم الأحلام الذي أعيش فيه حتى فوجئت بها أمامي تلك الدميمة التي خطفت زوجي تأسرني أنا وكل من كان معي وجاءت بي إلى هنا ولم أتذكر ما حدث إلا عندما رأيتها اليوم تمشي وسط الجنود تلقي عليهم الأوامر بقتل كل من يعترض طريقهم.

قلت بدهشة:

-بالتأكيد هي الذراع اليمني لهجرس وكانت تحقق رغبته في التخلص من كل من يملك القدرة على الوصول إليه، وقد أنقذك العجوز كما أنقذني.

هتفت امرأة أخرى:

-إذاً العجوز هو من يساعدنا جميعاً.

قلت بعد أن أشرت لهم بخفض أصواتهم:

-نعم هو الذي أرسله الله لنا في الوقت المناسب ودورنا الآن أن نتحد كي ننقذ أنفسنا.

أمسكت الجميلة بيدي وقالت: سنخرج لقد رأيته في حلم سنخرج ونعيش في عالم أجمل.

ابتسمت وأنا أتخيل تلك اللحظة التي باتت قريبة.

****

-7-

لا شيء يزعجني في هذا العالم سوى افتقادي لرائحة القهوة الصباحية التي كانت تدفعني لليقظة من أعماق نومي لارتشافها مع نشرة أخبار الصباح، ولا أدري لماذا كنت أهتم بأخبار الحروب والصراعات والزلازل والبركين.. لا أعرف ما سبب فضولي في التطلع إلى خريطة الطقس والحالة الاقتصادية لعلّي كنت أختبر صحة ما أقرأه عن النهايات الوشيكة أو أنه اليأس من الحياة هو ما جعلني أتتبع أخبار الكوارث.

هكذا أستيقظ كل يوم مثقلة بذكريات باتت بعيدة وبعالم يتلاشى في عقلي بمجرد ميلاده.. لكن طالما قُدر لي المجيء إلى هنا فلابد أن أقوم بدوري لمساعدة الناس في عملية التذكر.. يجب أن أقوم به للنهاية.

لاحظ الجنود نفور الناس من الحبوب التي يأتون بها كل صباح، فلم يكن أمامهم مفراً من أن يقدموا لنا بعض الأطعمة الجافة كأنهم يحاولون الاحتفاظ بنا لهدف كبير أو لكي يثبت ذلك الشبح لنفسه أنه نجح وأن هناك من يتبعونه ويفرض هيمنته عليهم وفي نفس ذات الوقت منشغلين بتتبع أثر العجوز فلم ينتبهوا للعقول التي تفكر وتتذكر ما كانت عليه في الماضي.

في ذلك الصباح المثقلة فيه رأسي من جوع الكافين لمحت مجموعة من الرجال يتهامسون.. اقتربت منهم كمتلصص وسمعت حوارهم:

-إلى متى سنظل في جحر الفئران هذا إننا لا نشعر بأدمينا بتاتاً.

-يعاملوننا كأننا فئران تجارب.

-آه يا رفاق أشتاق إلى حياتي القديمة.. كانت لي سيارة فارهة وشركة كبيرة وموظفون يعملون تحت يدي.

-ومن سمعك يا جاري لقد كنت جراحاً ناجحاً ولي عيادة كبيرة يتوافد عليها المرضي من كل مكان.

-وأنا كنت إعلامياً لي برامج معروفة ينتظر المتابعون حلقاتي بشغف لكني الآن أدفع ثمن حماقاتي فأنا من روجت لسطوة ذلك الهجرس.

صاح أحدهم: لماذا.. لماذا ساعدته؟

أسرعوا بوضع أيديهم على فمه وهم يطلبون منه الهدوء فرد الإعلامي بأسى وهو منكس الرأس:

-كانوا يدفعون لي ويروجون لبرامجي وقطعوا لي الوعود بأن مكاني في العالم الجديد سيكون مع طبقة الصفوة.

-خدعوك مثل الباقين.

انفعل كأنه يدفع عن نفسه شبهة الاتهام:

-كلكم خُدعتم مثلي وكلكم ساعدتموه ولكل واحد منكم قصة لا يريد الكشف عنها لكني أنا الوحيد الذي كنت صادقاً معكم ومع نفسي.

-كنا مغفلين.

-وهل صدقتم أن ما رأيتموه في السماء يومها مشهد من مشاهد يوم القيامة.

-نعم صدقنا مثل الآخرين لقد كان مشهداً رهيباً لم يترك الفرصة لعقولنا لتفكر أوتختار وعندما طُلب منا أن ندخل الجنة أو النار اختارنا الجنة التي هي نار ما نحن فيه.

لمعت عين أحدهم كأنه اكتشف أمر خطير وقال باندفاع:

-مادم كان معه جنة ونار هذا يعني أنّ هناك عالماً آخر غير الذي نعيش فيه.

-معك حق لم نفكر في هذا من قبل ففي اللحظة التي كنا نتسابق لدخول الجنة كان هناك رافضون لكل ما يحدث ويدخلون النار كنا نحن نسير بأقدامنا ومحض إرادتنا إلى الأسر وكانوا هم مكبلين يتقدمون نحو حريتهم.

-ربما كانت هذه النار عالم خارج سيطرته.

-بالتأكيد لكن كيف نخرج من هنا ونذهب إلى هناك؟

وجدت اللحظة مناسبة لأفرض وجودي وأتدخل في الحوار فهتفت من خلفهم:

-أنا أعرف.

التفتوا إليّ بنظرة ذعر فأسرعت وقلت لهم:

-اطمئنوا أنا لا أعمل مع أحد أنا هنا مثلكم لكني أعرف الطريقة التي نعود بها إلى عالمنا.

برقت عيونهم بلمحة أمل وقالوا في صوت واحد: كيف؟

-يجب أولاً أن نجعلهم يطمئنون من عدم وجود خطر من ناحيتنا ونتظاهر بعدم التذكر وعدم التفكير وأن نستمر في سلوكنا القديم من السمع والطاعة وكلما سنحت لنا فرصة التخلص من الجنود نتخلص منهم كما يفعل البعض دون ترك أثر خلفنا.

-كيف نفعل ذلك والمكان محاصر بالكاميرات وشبكات النت.

-ليس في الوقت الحالي فالأجهزة التي جعلتكم تتذكرون شيء من حياتكم السابقة تقطع شبكات النت وتشوش الكاميرات بصور خادعة والدليل على ذلك أنهم لم يكتشفوا قتلة الجنود وينفذون أحكام الإعدام بعشوائية ليرهبونا ليس أكثر.

-أحقاً لا يروننا!

-ولا يعرفون ما وصلنا إليه.

-من أنتِ لعلك منهم وتخدعينا؟

-بل أنا منكم جئت كي أنقذكم وإن لم تصدقوني فستضيع فرصتكم الوحيدة في النجاة.

نظر لهم الإعلامي وقال:

-لم يعد لدينا شيء نخسره وإن كنا صدقنا من هو أكثر خداعاً فلن يضرنا أن نصدقها.

ابتسمت بثقة وقلت:

-لابد أن تنتخبوا قائد منكم يتولى عمليات التخلص من الجنود.

هتف أحدهم:

-أنا لها فقد كنت قائد فرقة الصاعقة في الجيش الوطني ولدي خبرة في مجال الحرب والقتال.

-حسناً فلتدرب فريقك وكل جندي تتخلصون منه يدخل مكانه أحدكم بعد الحصول على شارته وملابسه وأجهزته ولا تخشوا شيء فهم أيضاً يقعون تحت التشويش الممنهج.

تركتهم يوزعون الأدوار ويخططون للمعركة القادمة وانسحبت بهدوء أبحث عن منال المهندسة التي تحدثت معها منذ أيام فوجدتها لازالت تجلس وحدها تذرف الدموع على زوجها وأولادها اقتربت منها وربت على كتفها فانتبهت إلى وجودي قلت:

-لقد انتهي الماضي بكل ذكرياته الأليمة علينا أن نبدأ من جديد.

هزت رأسها بأسى:

-وما فائدة البدايات الجديدة دون أحبتي.

-لأن هناك آخرين يجب أن نخلصهم من نفس المصير.

-وما المطلوب مني.

-سنندس وسط الناس ونذكرهم بعالمنا القديم.

-وما فائدة ذلك؟

- لنوقظ فيهم روح الأمل ونشعل نار المقاومة.

-وهل سنستطيع نحن العزل بلا أسلحة أو تكنولوجيا القضاء عليهم!

-هم الآن في أضعف حالاتهم ألم تلحظي التشويش بما أنك مهندسة اتصالات بالتأكيد تفهمين ما يحدث.

-أفهم أن أحدهم تسلل إلى نظامهم لكن لا تتفائلي إلى هذه الدرجة تأكدي أنهم سيصلون إليه كما وصلوا إليّ.

-ربما كان حذر ويأخذ احتياطاته وربما أغلق طرق الوصول إليه المهم أن نستغل الفرصة ونعمل بأقصى طاقتنا.

-حسناً سأفعل من أجل الأطفال الذين لم يتمتعوا بالحياة تحت شمس النهار وقمر الليل ودفء العائلة.

تفرقنا أنا وهي وذوبنا وسط الناس نلتقط خيط أحاديثهم كي نوقظ فيهم روح الحياة التي افتقدوها في أسر السراديب، لم يمر يوم واثنان حتى نجحنا في شحن عدد من الناس لا بأس به ليكونوا في حالة تأهب واستعداد، وكثرت عمليات التخلص من الجنود والتفنن في إخفاء جثثهم بشتى الطرق الممكنة فيتم دفنهم في الخرائب أو في الممرات المعتمة، واستطاع بعض الرجال تقمص أدوار الجنود والتسلل بينهم فيجلبون لنا معلومات داخلية عن النظام وخطط الهجوم والدفاع.

وبدأت زيارات بيبرس الخاطفة فأخبره بكل ما أحصل عليه من معلومات وبكل ما تم إنجازه في فترات غيابه،

في كل مرة ألتقي فيها ببيبرس أمعن في ملامح وجهه ونظرات عينيه ربما كان يشبه ذلك الشاب الذي تعرفت عليه في سنوات الجامعة وحاول التقرب مني وإبداء إعجابه بي لكني وقتها لم أكن منفتحة لتقبل فكرة وجود آخر في حياتي على طريقة الحب والتعارف فصدمته بكلمات جارحة وصلت إلى حد السباب فظلت عينه محدقة في وفمه مفتوح من شدة دهشته مما يسمع، فقرر أن يختصر الطريق وبحث عن عنوان بيتنا وتقدم لخطبتي ورفضته أمي بحجة أنه مجهول النسب، لم أهتم به لكنه حين غادر نظر لي نظرة ذات معنى كأنه يريد أن يخبرني بشيء ثم نطق جملته الأخيرة: "كنت أحاول إنقاذك لكن لا فائدة" شغلت الجملة تفكيري لفترة من الزمن لماذا يحاول إنقاذي ومن أي شيء قالت لي أمي كي تصرفني عنه إنه يهذي.

اختفى بعدها من الجامعة ونسيت ما حدث بل إنني أقنعت نفسي أنه مريض نفسي وبررت سبب اختفائه المفاجئ بأنه حتماً يتلقى العلاج المناسب في إحدى المصحات النفسية.

كنت أشعر بطريقة ما أن بيبرس هو ذلك الشاب الذي كان يُسمى يوسف، وكأنه يقرأ ما يجول في رأسي فأراد أن يقطع وساوس أفكاري وودعني في

إحدى اللقاءات بنفس العبارة "كنت أحاول إنقاذك لكن لا فائدة" قالها ومضى لكن هذه المرة ألقى الشعلة التي أججت النار في روحي؛ ماذا يحدث هنا هل يمتلكون آلة الزمن؟ هل تطورت التكنولوجيا للحد الذي مكنهم من السفر في الماضي ومعرفة أسماء المنكوبين في هذه الكارثة أم إنه مصير كُتب عليّ كما تنبأت قارئة الودع.

تشتت طوال اليوم ولم أستطِع تنفيذ أية مهام تُطلب مني حتى وجدته أمامي في اليوم التالي لهذا اللقاء، سرت معه صامتة وفي رأسي ألف سؤال وسؤال لكن من أين أبدأ وكيف؟ نظر لي بعين يملؤها الشجن وقال:

-سأوفر عليك عناء التفكير والكلام؛ إن معلمي وأبي بالتبني والذي التقيت به صدفة بعد رحيل والدي في حادث مريع رباني كابنه وعلمني كل أسرار العلم والتكنولوجيا وبعدما كبرت صارحني بحقيقة موت عائلتي التي كانت ضحية لإحدى التجار البيولوجية، ولم يجد ما يخرجني به من الحزن الذي كبل روحي سوى أن يُطلعني على كل الملفات السرية قبل أن يتخلص منها ويخفيها؛ فعرفت مخطط نهاية العالم وعرفت حقيقة هجرس وحقيقة من يقفون وراءه ويساندونه وعرفت أسماء أعدائه ومؤيدينه وخطط التخلص من الأعداء، كنت أقضي الليل كله في الإطلاع على الملفات كنوع من

المواساة لذاتي كي أشعر أن ألمي نقطة في بحر عميق، وفي ليلة شديدة البرودة والملل رأيت صورتك من ضمن الأعداء، لسبب ما شعرت أنّ بك شيئاً مختلف ربما تملكين روح صافية.. نظرة عينيك بها شيء مختلف عن باقي الوجوه بها حزن دفين وأمل بعيد، عندما عرضت صورتك على أبي وقلت له ما أشعر به توقف طويلاً أمام الصورة وعندما جمعنا بيناتك وعرفنا اسمك لاحظت أن وجه أبي به شيء اختلف ونظرة عينيه لمعت ببريق السعادة، واتفقنا أن نحاول إنقاذك.

-ما الذي كنت تحاول منعه؟

-كارثة زواجك ما فعله زوجك معك هو ما دفعك إلى البحث والمعرفة فدخلت قائمة الأعداء.

-كيف عرفتم ما حدث قبلها بعشر سنوات؟

-الموضوع ليس له علاقة بالسفر عبر الزمن بل بالسفر عبر الأثير.

-ما مشكلة هجرس مع المعرفة؟

-المعرفة تعني التفكير وحرية اتخاذ القرار وهذا ضد مصلحته لذلك حرص أن يكون كل أتباعه من الجهلاء والعالم الجديد الذي أنشأه كما ترين لا

وجود للتعليم فيه، لقد حاولت أنا وأبي إنقاذك قدر المستطاع حتى بعد أن جئت إلى هنا لم نتركهم يزرعون لك شريحة التحكم.

-إن كان يجلب كل من له علاقة بالعلم والعلماء إلى هنا فأين يذهب الجهلاء.

-هنا أيضاً وهذا أقسى عقاب للعلماء أن يتساووا بالجهلاء ويعيشوا مسلوبي الإرادة فاقدي الحرية.

-لقد سمعت بعضهم يقول أن هناك عالم آخر خارج سيطرته يعيش فيه الناس حياة حقيقية وليست مزيفة وإن كانت حياتهم شاقة بعض الشيء حيث يسود الجفاف وتتصحر الأرض.

-صحيح وربما يعيشون حياة بدائية لكنهم أفضل منا لأنهم يملكون إرادتهم.

-هل هم أكثر منا عدداً؟

-لا قلة واعية لكن هؤلاء هم بذرة العالم الجديد وبعد أن نتخلص من هذا العالم الوهمي سننضم إليهم.

-ومتى يحدث هذا؟

-قريباً لقد اقتربنا من النهاية.

شعرت بشيء من الطمأنينة وأنا أنظر في عينيه أردت أن أقول له كلام كثير.. أردت أن أسأله ماذا كان سيحدث لو أنني وافقت على الزواج منك في الماضي؟ لكني اكتفيت بهذا القدر من المكاشفة وهدأت روحي.. شعرت بالسلام يسود العالم وسمعت أصوات الآذان لعله آذان المغرب أو العشاء أسمعه يتردد في رأسي.. وقفت أنظر إليه وهو يبتعد ويبتعد ويختفي في الأفق كشمس تغيب عن نهار شتوي ينتظره ليل بارد طويل.. استدرت عائدة وأنا أشعر بمذاق القهوة ورائحة العطر والياسمين.. شعرت بظلال الأشجار في نهار صيفي وبرزاز البحر المالح يضرب وجهي.. شعرت بدوران الأرض فرحاً وطرباً وبسريان الدم في أوردتي صعوداً ونزولاً.. شعرت بذرات التراب التي سرنا عليها أنا وهو فقط لا خالد الورداني ولا زهرة الحياة ولا فيس ولا حظر ولا طفل منتظر لا يجيء لحكمة إلهية.. شعرت بأوراق الشجر تطير حولنا وبالزهور تتفتح أمامه فيقطف واحدة ويهديها لي في عيد زواجنا الأول بالطبع سيكون يوم مختلف لأنه عيد لميلاد جديد ستتراقص الريح وتلفحنا بنسمات باردة يعقبها ندف الثلج الذي يحدث كظاهرة نادرة أحياناً وسأسمع صوت النجوم تناديني:

-أيتها السعيدة.. أيتها العاشقة.

وأنت عشقي الفرصة التي لا تأتي في العمر سوى مرة واحدة.. تأتي بغتة مثلما مات أبي بغتة وتحولت من طفلة سعيدة إلى طفلة تعسة يتيمة.. يتيمة أي تملك كل إمارات الحزن والانكسار يحاوطها الفقر والهزيمة.. يحاوطها الغرق وكلما حاولت النجاة تسقط في القاع السحيق، لكن الحياة لا تأتي سوى مرة واحدة مثلها مثل الموت وأنا أضعتك يا بيبرس وأضعت الحياة كلها ليس لأن المعرفة أغوتني ولعنتي وألقتني في اللازمان واللامكان ولكن لأني لم أعشها من بعد أبي ولم أشعر بمذاقها فقد داهمني الموت وارتديت كفني لا فستان عرسي.

آه لو نملك تغيير القدر.. آه لو كان في إمكاننا تجنب كل الآلام التي مرت بنا.. آه يا مدينتي لما منحتيني كل أسرار التعاسة وتركت شرخ في روحي.

لكني مُدينة للمعرفة مرتين مرة لأنها ألهتني عن الانتحار ومرة لأنها جاءت بي إلى هنا إلى بيبرس.. منحتني الحياة لفرصة أخيرة بذرت في روحي بذور المغامرة وأدوار البطولة التي طالما عشتها في أحلام اليقظة وقصص إنقاذ العالم من قوى الشر التي كنت أتقمص فيها دور البطل الخارق بعد مشاهداتي لأفلام الكرتون؛ فأتخيل أن هناك من يخطط لتدمير العالم وأنا أسعى خلفه لأخلص العالم من عبثه.. وأتخيل منظر الحرائق والخرائب

والجنود الذين يقتلون الناس بلا مبرر فأقف أمامهم بقوتي المذهلة وثيابي التي صُنعت لي خصيصاً فلا يؤثر في رصاصهم ولا أسلحتهم وبعد أن تنتهي ذخيرتهم عبثاً أهجم عليهم وأطفئ الحرائق وأعيد الناس إلى بيوتهم سالمين، لم تكن سوى أحلام يقظة لطفلة أدمنت المشاهدة ولم تجد لها بديل في عالمها الذي حاصرها بالوحدة.

الآن أنا هنا لأنقذ العالم أو بمعنى أدق لأنقذ ما تبقى من العالم وأعيد الناس إلى بيوتهم وتعود الحياة كما كانت حياة حقيقية نتنفس فيها تحت سماء حقيقية لا مزيفة يوجد بها بحر حقيقي لا مزيف نتنفس هواء نقي ونأكل من زرع الأرض.

لقد عرفت بالخبرة والسماع أن هذا العالم اصطناعي وهمي كفيلم سينمائي يبثونه في عقولنا وأننا نعيش في سجن كبير إن لم نحطم أغلاله سنموت فيه.

أي نهاية يخطط لها هذا الهجرس وما مشكلته مع الحياة ليستدعي الموت بهذه السرعة، ما مشكلته مع البشر ليمنع عنهم تميزهم ليسلبهم العقل والتفكير والإرادة وحرية الاختيار وكل ما ميز به الله الإنسان عن الحيوان.

كنت أسير عائدة عندما اقترب مني جندي ولكزني في كتفي قائلاً:

-ارفعي يدك لأعلى وسيري أمامي.

ألتفت إليه لأتأكد إنه ليس من رجالنا كنا قد اتفقنا فيما بيننا أن نميز رجالنا المندسين بينهم بشارة يضعونها في أيديهم.. نظرت إلى يده ولم ألمح الشارة فما كان مني إلا أن سرت في هدوء حتى رأيت جندياً من رجالنا فاستنجدت به، اقترب مني وسأله بحدة:

-ماذا فعلت؟

-إنها من المتآمرين لقد التقطَ جهازي إشارات التفكير ونشاط الذاكرة.

-يا للوقاحة كيف تجرئين على ذلك.

قالها بأداء تمثيلي في نفس اللحظة التي أرسل فيها إشارة إلى فرد من فريقه فحضر بسرعة وتم التخلص من الجندي باحترافية ثم أشاروا إليّ لأعود إلى السرداب.

****

-8-

أتعرف يا بيبرس أن للغياب طعم الدهشة وأن الوطن على بعد مسافات من خطواتك.. أتعرف إنني انتظرتك منذ ميلادي وحين جئت في المرة الأولى أضعتك كما يضيع المطر في الرمال وذهبت إلى السراب بظمئي لكنك عدت بسحاباتك اللطيفة باتساع محبتك وعمق إخلاصك، أنت حلمي الذي تحقق.. وطني الذي عثرت عليه في وحشة الغربة كل ما يفصل بيننا هو المسافة بين الحياة والموت الحق والباطل العمار والخراب.

لم أسأل نفسي من قبل لماذا لا أطيق الانتظار ولا أتحمله.. لماذا كانت أصعب لحظات حياتي الماضية هي اللحظات التي عانيت وجربت فيها الانتظار.. انتظار نتيجة الامتحان.. انتظار خالد ليعود متأخراً كعادته انتظار نتيجة تحليل الحمل الكاذب.. وانتظار من أحبهم، وقد حدث أن خسرت أعز صديقاتي بسبب تأخرها على في حفل زفافي.. ظلت عيني معلقة على كل مداخل القاعة على أمل أن ألمحها قادمة في عجالة وبعد أن دبَّ اليأس في روحي فوجئت بها أمامي بعد منتصف الحفل لم تعتذر أو تبرر تأخرها.. كنت على أتم استعداد لتصديق أي حجة حتى لو كانت كاذبة

لكنها اكتفت بأن مدت يدها لتصافحني فأعلنت موتها في تلك اللحظة أعلنت لنفسي عدم حاجتي إليها ولا للود الذي جمع بيننا ووضعتها في القائمة السوداء.

وهذا ما أعانيه هنا فأصعب لحظات حياتي هي لحظات انتظاري لبيبرس اللحظات التي تسبق الدقائق الخمس التي نتحدث فيها سوياً.. اللحظات التي تسبق رؤية وجهه النقي وسماع صوته الحنون وهو ينطق حروف اسمي ويقول: "كيف حالك يا راشيل"، وبسبب تلك اللحظة أرود نفسي على قبول الانتظار فهو العذاب الجميل الذي يأتي بعده أفضل ما في حياتي الآنية والقادمة ليمدني بالأمل والرغبة في الحياة فأشعر معه إنني سأولد من جديد سأعود طفلة غير يتيمة وسأتزوج لأول مرة بمن أحبه ويحبني وسأنجنب أطفال كثيرة ليعمروا الأرض بعد هذا الخراب.

كم هو عجيب أنني لازلت أحتفظ بقدرتي على الحلم.. أن يستطيع عقلي تخيل ما هو آتٍ ما كان وما سيكون أن يجتمع الماضي والمستقبل في ذاكرة واحدة.

بيبرس كم أعشق ترديد اسمك على شفتي أشعر أنه يمر على القلب قبل أن ينطق به لساني.. اسمك الذي أنسى به ظلمة السرداب وخوف المجهول.

استمرت خطتنا بنجاح بالتخلص من الجنود وتذكير الآخرين بحياتهم السابقة صرنا نفرق بين الأصدقاء والأعداء من نوعية الأحاديث فالأصدقاء يتحدثون بأمل عن إمكانية النجاة والأعداء يتحسرون على ما وصل إليه حال هجرس؛ اعتزلنا أماكن تجمعهم وصارت لنا جلسات ولقاءات بعيداً عنهم، وبعد توغل جنودنا في نظامهم استطاعوا الوصول إلى مخرج من هذا العالم لكن كيف نستطيع الخروج الآمن؟ كانت هذه هي مهمة العجوز وآخر ورقة يلعبها مع النظام، بالطبع لم أستطِع معرفة التفاصيل وكنا نكتفي بالرموز والإشارات فقد علمتنا حياة السراديب الحذر.. الحذر بقدر الإمكان كنا نعيش إرهاصات الحرية وننتظر اللحظة التي يخبرنا فيها العجوز باليوم الموعود.

هذه هي المرة الأولى منذ جئت أتلمس فيها السعادة تطرق القلوب وتترك على الوجوه شبه ابتسامة يذهب بها حزن الفقد والحسرة على ما فات فبات لديهم أمل في حياة جديدة أو على الأقل الموت بكرامة وأدمية.

وحانت اللحظة المنتظرة جاء بيبرس وزع علينا كشافات وأخبرنا أن صباح الغد هو اليوم الموعود تناقلنا الخبر في سرية ونمنا في أطول ليلة مرت علينا نستيقظ بمعدل كل ساعة مرة أو مرتين نترقب نور الشمس وحين

بدأ النهار بساعاته الأولى تجهزنا للرحيل وبدأ تنفيذ الخطة بانقطاع التيار الكهربائي فعم الظلام السرداب وانطفأت تلك المصابيح الباهتة التي كانت تبقينا في حالة النوم بمجرد إغلاق الباب، وعندما خرجنا فؤجئنا بالظلام يحاصرنا فلا شمس مشرقة ولا سماء تضيء ولا عواميد إنارة ولا بحر يضرب أمواجه حولنا.

سرنا على ضوء الكشافات نتتبع الجنود الذين قادونا إلى مخرج ضيق لا يتسع سوى لمرور سيارة صغيرة، يبدو أنه تركه ليكون همزة الوصل بين العالمين مع وضع حراسة مشددة عليه لكن جنودنا البواسل استطاعوا النيل منهم إن رغبة الخلاص أعطتهم شجاعة فوق شجاعتهم لدرجة أن الرجل منهم لا يخشى على نفسه أو حياته في مقابل الحرية.

خرجنا ووجدنا أمامنا الهواء النقي والسماء الصافية والشمس المشرقة.. كانت أمامنا صحراء ممتدة بلا نهاية وكان علينا أن نسير ونبتعد عن هذا السجن.. أخذنا نركض بعيداً حتى أنهكنا التعب وحتى ابتعدنا مسافة كبيرة ووجدنا جبل أمامنا فجلسنا خلفه نستريح ونروي ظمأنا بزجاجات المياه الصغيرة التي استطعنا حملها.. عشنا لحظة جليلة لم نكن نفكر إلى أين سنذهب ولا ما مصيرنا ولا ماذا سيحدث بعد ذلك؟ فقط كانت تكفينا

سعادة النجاة حتى لو مكثنا باقي عمرنا ضائعين ومشردين في الصحراء لن نحزن على شيء لأننا بمنتهى البساطة لم نعد نملك شيئاً لنخسره فجميعنا بلا عائلات أو ممتلكات أو عمل كل ما نملكه الآن هو الحرية لا شيء غيرها.

جلسنا نستريح خلف الجبل ليوم كامل مرت فيه الشمس من الشروق إلى الغروب تبعها القمر يتوسط السماء كملك تحاوطه الحور من النجوم شعرنا بحر النهار وببرد الليل وبنسيم الفجر، ومع شروق شمس اليوم الثاني لحق بنا بيبرس وفريقه.. هللنا بمجرد رؤية العجوز كشمس غابت عن السماء في كسوف مفاجئ ثم انكشفت للعيون، طمأننا أنهم لن يستطيعوا الوصول إلينا فقد دمر برنامج الطاقة الذي يدير المكان وبالطبع لن يستطيعوا إصلاحه بدونه فهو من صممه ويعرف أسراره، طلب منا أن نسير بمحازاة الجبل لنصل إلى العمار، سرنا بحماس وأمل، سرنا في الحر وتحت لهيب الشمس يوم يومان ثلاثة حتى وجدنا على مرأى البصر بيوتاً ومبانيَ، سبقنا العجوز ليطلب لنا الإذن بدخول مدينتهم فجلس مع الزعيم وحكى له ما حدث وما وصل إليه حالنا فرحب بنا وباستضافتنا وعرض علينا الإقامة والاستقرار في مدينته.

مكثنا معهم أسابيع نساعدهم في أعمالهم ونشاركهم في ديارهم حتى أحبونا وتمسكوا بوجودنا وبدأنا نبني بيوتنا وسطهم ونعمر المدينة بما تبقى معنا من خبرات وعلم لا زال يترنح في الذاكرة، وبعد أن هدأنا وألفنا الحياة الجديدة وبدأت بطوننا تهضم الطعام واللحوم والألبان سألت بيبرس هل يمكنني العودة لعالمي وهل يمكنه العودة معي لكنه قال لي الحقيقة التي كنت أعرفها وأغفلها في نفس الوقت أخبرني أن الموضوع بدأ كإغماءة أو غيبوبة ثم تم سحب جسدي عبر الأثير أي أنني لم أعد موجودة في عالمي اختفيت للأبد ولن يمكنني العودة في الوقت الحالي لأن كل وسائل التكنولوجيا معطلة وسيبقى هذا العطل حتى ينتهي وجود هجرس، لم أنزعج ولم أحزن ولم يراودني الفضول في معرفة رد فعل خالد على حادث اختفائي أو لا يهمني المعرفة، الأهم أنني هنا في عالم جديد وزمن جديد.. في بداية جديدة لا أعاني يتم أو وحدة أو فراغ.. لا تكسرني خيانة أو تجاهل أو محاولة قتل بطيء.

أنا هنا مع بيبرس سنبني لنا بيتاً صغيراً وسنتزوج كأول مرة أتزوج فيها ولن يشغلنا مشاغل عن بعضنا، فهنا لا يوجد واتس أو فيس أو حتى هاتف.. هنا لا توجد نساء خائنات ولا أزواج أشباه رجال.. هنا لا توجد

سوى النجوم نحدثها ليلاً والحصى نحصيه نهاراً لنقتل الفراغ.. بيبرس هو الأمل الذي أحيا لأجله والهدية التي أرسلها الله لي في ظلمات الظلم.

****

-9-

مضت أيام جميلة تمتعنا فيها بالنقاء وبالطبيعة الساحرة لم يعكر صفونا سوى موت العجوز.. رحيل المخلص والمنقذ من كنت أعتبره أبي.

جاءت أيام حزينة سوداء ابتعدت عن الجميع وهمت على وجهي في الصحراء أتخبط في الوديان والشعاب أناجي ربي ليهون حزني، احترم بيبرس مشاعري التي لم تكن تقل عن مشاعره بل أن مصابه في فقد العجوز أكبر مني فهو من فقد أبيه الذي رباه وتعهده بالرعاية والتعليم وفوق كل هذا فقد أهداني له وكان سببَ تعارفنا.

وبعد انقضاء أيام الحداد كنت أتقلب في فراشي أجافي النوم فاقترب مني بيبرس وأعطاني مظروف كبير نظرت إليه بتساؤل فقال: أنه من أبي أوصاني أن أعطيه لك.

فتحت المظروف بفرحة وشوق كأن شيئاً ضاع مني وعثرت عليه بعد أن فقدت الأمل فيه فوجدت خطاب تنفست رائحته وبدأت أقرأ:

"ابنتي الحبيبة راشيل

نعم ابنتي التي كنت أبحث عنها ولم أعثر عليها إلا بمساعدة بيبرس حين حاولنا إنقاذك من هذا المصير لكننا اكتشفنا أن هناك أشياء لا تتغير مهما تقدمنا في العلم والمعرفة وهو القدر القدر الذي كتبه الله علينا منذ الميلاد، ولن أصف لك مشاعري عندما وضعت لك جهاز التذكر لتتذكري حادثة اختفائك وأنت صغيرة فقد عدت بذاكرتك إلى بطن أمك وأنت تلعبين مع أختك التوءم وتركلين بقدمك يميناً ويساراً وتبتسمين، ثم تبكين وبعد عدة ليالٍ تخرجين من رحم أمك أنت سبقت أختك أسيل أنت الأكبر والأسبق في كل شيء بالطبع لن تتذكري لأنني محوت هذا المشهد وقتها كي لا تجتمع الآلام على روحك فتشعري أنني فرطت فيك بمحض إرادتي، آن الآوان لتعرفي الحقيقة؛ كنا أنا وأمك من علماء الفيزياء المعروفين بالبراعة في هذا المجال، لكن تغيرت الحياة فجأة بعد أن حصلت على جائزة نوبل نظير ما قدمته من إسهامات علمية ولم تقل أمك عني في إنجازاتها، وبعد ميلادك أنت وأختك زارني بروفيسور كبير في الوكالة العالمية للعلوم والتكنولوجيا وطلب مني أن أنضم إلى مشروعه لتغيير حياة الإنسانية إلى الأفضل وشرح لي صعوبة مشاعر الألم والمرض والجوع والفقر والموت وقال إن مشروعه سيخلص البشرية من الآلام لن يكون

هناك عالم أول وعالم ثالث.. فقراء وأغنياء.. مرضى وأصحاء.. سعداء وأشقياء.. سيتساوى الجميع وسنحيا في سلام بلا حروب أو صراعات أو نزاعات.

في البدء أخذتني الحماسة وأخذت أحلم بالمدينة الفاضلة وعندما استشرت أمك وافقت على الفور شجعتني وطلبت انضمامها إلى المشروع لكننا فوجئنا بالمشاكل التي تثيرينها ببكائك وصياحك طوال الوقت لا ترضين بانشغال أمك عنك لدرجة أنها لا تجد الوقت الكافي للعناية بأختك حتى حدث ما كنا نخشاه مرضت أختك مرض شديد بسبب إهمال أمك لها وانشغالها بك فحملتها لتذهب إلى الطبيب وكان أبيك بالتبني يعمل سائق عندنا لانشغال العقل وعدم قدرتنا على التركيز في القيادة، وفي الطريق رأى أمك تبكي وعرف منها المشكلة التي حولت حياتها إلى جحيم ولا أدري أكان سوء حظك أم حسن حظ أمك، أنه لم يكن لديه أولاد فقد كانت زوجته عاقر؛ فعرض على أمك أن يأخذك لزوجته تهتم بك لحين شفاء أختك لم يكن أمامها مفر من ذلك حتى تتعافى أختك، ومرت الأيام بطيئة وأختك تتعافى ببطء مما جعلنا لم نتعجل عودتك إلى البيت حتى جاء اليوم الذي أحضر فيه زوجته وهي تحملك وتترجى أمك بأن تتركك بعض

الوقت عندها ووصفتك بأنك الملاك الذي هبط عليها من السماء ليطرد شبح الحزن والوحدة من بيتها، نظرنا أنا وأمك إلى بعضنا نحاول أن نخفي شعور السعادة داخلنا بزوال حمل ثقيل عن كاهلنا بشكل مقنع؛ فأمك لن تستطيع رعايتك والاهتمام بك كزوجة حسن السائق المتفرغة التي لا تعمل وتعاني من الوحدة والفراغ ومن فقدان مشاعر الأمومة حتى جئت لها في شكل هدية مغلفة بالرحمة، وافقت أمك بعد تردد وبعد تشجيعي لها لثقتي في حسن وفي زوجته.

ذهبت معهم وتعافت أختك الهادئة التي لاتضجر من شيء ولا تتمرد ولا تثير المشاكل وتفرغنا أنا وأمك للمشروع خططنا لكل شيء بالطبع لم يكن منها نهاية العالم لم نخطط لاستعباد البشرية ولا لتدمير المجتمع كنا نخطط فقط لعالم بديل في حال تعرض الكرة الأرضية للدمار بفعل الحروب العالمية المشتعلة وصنعنا هذا العالم الذي كنا فيه بكل تقنياته ولم نكن على علم ببقية المخطط حتى حدث ما قلب حياتنا رأساً على عقب فقد أطلعت أمك على ملف سري يكشف عن بعض الحقائق الخفية عن المشروع وبالطبع اكتشف هجرس ما فعلته وخطط للتخلص منها وحدث حادث السيارة التي كان يقودها أبيك وتيتمت أنت وأختك في يوم

واحد، تتساءلين كيف تركتك يومها وهاجرت من البلاد؟ لم أتخلَ عنك وأتركك بمحض إرادتي لقد خطفني هجرس تحت التهديد يومها كان لدي أشياء كثيرة أخاف خسارتها منها أختك وسمعتي المهنية والعلمية التي باتت في يده يتلاعب بها وقتما يشاء، وأكملت ما بدأناه أنا وأمك مرغماً..

مرغمٌ لأنني عرفت أن كل شيء سينتهي بي أو من غيري وإن كان وجودي سيعجل من النهاية لكني فكرت بشكل إيجابي في حلول بديلة فكما وضعت خطة نهاية العالم وضعت خطة إنقاذ العالم كمن يعطي السم لعزيز عليه وهو يملك الترياق.

وما حدث بعد ذلك أنت تعرفينه أنت نجوت ببعدك وأختك لم تنجُ، أنت هنا تحت السماء الصافية وهي غيبها التراب الأسود لمجرد أنها أخطأت نفس خطأ أمها واطلعت على السر وكان عقابها الإعدام.. كان مشهد موتها هو قيامتي التي قامت فقررت أن أنقذ البشرية وأتخلص من كل هذا الجحيم ووضعت الخطة المضادة لكل ما فعله والآن هو حبيس في الجحيم الذي صنعه لن يستطيع الخروج هو وجنوده إلى أن يشاء الله.

سامحيني يابْنتي فقد يتمتك مرتين لكني فعلت كل ما في وسعي لإنقاذك ولا أريد منك سوى أن تستمري في الدور الذي كلفتك به من توعية الناس

وتذكيرهم الدائم بذكرياتهم القديمة فكل ما مر بهم ساهم في تشويش ذاكرتهم وربما يأتي يوم لا يتذكرون حتى أسماءهم فاستمري في شحن عقولهم كي لا تفقد وظيفتها ولا تيأسي أو تملي فهذا دورك الذي قدره الله لك.

ولن أوصيك على ابني بيبرس لأنني أعلم مدى محبتك له لكني سأوصيك على أحفادي القادمين اعتني بهم لأجلي فكم كنت أود أن يمتد العمر حتى أراهم وأحملهم بين يدي بلغيهم محبتي وسلامي.

ملحوظة:

مرفق مع الخطاب خلاصة تجاربي ونظرياتي العلمية في مجال خدمة البشرية كما بها خريطة للمكان السري الذي أخفيت فيه بعض اختراعاتي وأجهزة تشغيل الطاقة أعرف أنكم ستحسنون استخدامها فأنتم الناجوون الذين شاهدتم كل النهايات ونأمل من الله أن تأتي بكم بدايات جديدة لاستمرار الحياة على الأرض ولميلاد عالم جديد، فهذه ليست المرة الأولى التي ينتهي فيها العالم ليبدأ من جديد لقد مرت أجيال كثيرة بما مررنا به وإن كانت النهايات تختلف فإن البدايات تتشابه.. ودائماً ما تكون مجموعة من البشر

نجوا من الطوفان أو من زلزال مدمر أو من كارثة كونية وبدؤوا بإيمانهم يعمرون الأرض ويمهدون الحضارة.

لعلها ليست الأولى لكني أتوقع أن تكون الأخيرة الفرصة الأخيرة لحياة بني آدم على الأرض تلك الحياة التي تنحصر ما بين راحل وما بين مستعد للرحيل، لكن لازال أمامك عمر مديد فلتحيه في سعادة وهناء.

مودتي

أبيك

كأني قرأت تلك الكلمات من قبل كأني كنت أعرف أنك أبي كأني كنت أبحث عنك ووجدتك في اللحظة الأخيرة لكنكم رحلتم رغماً عني وعنكم وبقيت لي الرسالة فكما كنت أنت العقل الذي دبر وخطط سأكون أنا اليد التي تبني وتنفذ.

****

تمت بحمد الله

راشـــيل

رواية

عزة مصطفى

الطبعة الأولى
1442 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com